الباب الأول

فكرة الروح منذ فجر التاريخ

عجالة عن الروح عند الأقدمين[1]

تمهيـــد

الإيمان بالروح قديم قِدَمَ الإنسان ، بما فى ذلك الاعتقاد بخلودها وبالثواب والعقاب ، وكلما تتبع الباحثون تاريخ المجتمعات البشرية وجدوا الإيمان واضحاً بهذا الخلود ، بل وجدوا علامات كثيرة من التشابه فى وصف الحياة الآخرة وربطها بالحياة الدنيا . ومن الاعتقاد بأن هذه الحياة الآخرة فيها كل مظاهر الحياة الدنيا ، مع تفاوت كبير فى ظروف السعادة أو الشقاء . فذلك هو ما التقت عنده معتقدات الأقدمين وأساطيرهم وأشعارهم فى شتى الحضارات المندثرة ، وعند من يعرفون كيف أن الإلهام قد يوجه الحياة فى كافة مستوياتها ، وكيف أن عقول العباقرة والفلاسفة والشعراء كثيراً ما تكون هى (أجهزة الاستقبال) لهذا الإلهام الكونى العام ، ويبدو مفهوماً أمر تشابه المعتقدات المختلفة عند شتى شعوب الأرض فى شأن طبيعة الحياة الأخرى ، لا فى شأن التسليم بها فحسب .

وفى هذا الشأن يقرر الأستاذ الدكتور حسن عثمان فى ترجمته العربية ، لكوميديا الشاعر دانتى أليجيرى عن « الجحيم » لم يكن دانتى بطبيعة الحال أول من تناول فى « الكوميديا » عالم ما بعد الحياة ، ولقد تناولت ثقافة البشر هذه الناحية منذ أقدم العصور ، من سيبيريا إلى الهند وبابل ومصر وسوريا وفارس

---

(١) الإنسان روح لا جسد للدكتور رءوف عبيد .

واليونان وروما وإسكندناوة وأيرلندة والأندلس .

نجد مثلا **المصريين** القدماء قد عرفوا فى ديانتهم الجحيم المظلم بما يحتويه من ألوان العذاب ، وتصوروا الفردوس بما فيه من أنواع النعيم والسعادة الأبدية ، وعندهم أوزيريس يزن أعمال الناس ، ويدفع بهم إلى الجزاء العادل . وفى ديانة **البابليين** تهبط عشتروت إلى الجحيم حيث عذاب الزمهرير والجوع والعطش والبرص ، لتبعث تاموز إلى الحياة . وعند **اليهود** أرض الظلام التى تقع تحت الأرض ، وتتلقى الأخيار والأشرار على السواء . وفى ديانة **الفرس** جحيم ومطهر وفردوس ، والإنسان ميدان معركة بين (أهورا ما زاد) إله الخير و « أهريمان » ملك الظلمات والعالم السفلى . وفى ديانة **الهند** يهبط يودهيشتيرا إلى الجحيم ، حيث رائحة الإثم والجثث والديدان والهوام والطيور والكواسر وأمواج اللهب ، ويصعد البطل أرجنا إلى السماء مأوى المؤمنين حيث الأزهار الجميلة ، والغوانى تحت الأشجار الخضراء ، والأنغام السماوية ، ويصل البطل محاطاً بالملائكة وصفوة البراهمة إلى حضرة رب الأرباب . وعند **الإغريق** يذكر هوميروس فى الإلياذة عالم الموتى والأبالسة وأنهار الجحيم وأبواب السماء ونعيم الفردوس . ويتكلم فى الأدويسية عن زيارة أوليسيس للعالم السفلى وحديثه مع أشباح الموتى . وتحتوى ثقافة **الأوترسكيين** على عالم ما بعد الحياة ، وما يشمله من الشياطين والرعب والفزع . وبعض رسوم مقابرهم تعتبر كمقدمات لجحيم دانتى .... »[٢] .

وهكذا يصدق على إيمان مواكب الشعوب بالروح وبالخلود ، ما لاحظه أحد الحكماء من أنه مما كتبه قدماء الفلاسفة من جميع الأجناس ، وما أنشده

---

(٢) عن الكوميديا الإلهية « الجحيم » راجع بوجه خاص ص ٥٥ – ٦١ .

فطاحل شعراء جميع الشعوب ، وما جاء به حكماء جميع الأمم ، نستطيع أن نجمع آثار هذا الإشراق الذى جاء الإنسان ، وهو تفتح الوعى الروحى . لقد تحدث عنه هذا بطريقة ، وذاك بأخرى ، ولكن الجميع رددوا نفس القصة — قصة واحدة لا تختلف . كل الذين أشرق عليهم هذا النور ولو خافتاً باهتاً ضعيف الضياء يرون نفس المعالم . وقرب الشبه بين ما تصنعه الأنشودة والشعر والتعاليم ، مهما بَعُدَ العصر واتسعت الحقبة بينها ، إنها أنشودة الروح التى إذا سمعت مرة لا تنسى ، سواء أنشدها المتوحش على صوت آلته البدائية ، أو عزفها المتحضر على أوتار الآلة العصرية المتقنة .

إنها هىَ هىَ التى انحدرت من مصر الفراعنة ، أو من الهند ، أو من أثينا وروما . من القديس المسيحى فى الكنيسة والدير ، من الفيلسوف الصينى ، ومن قصص الهندى الأحمر وهو يروى أسطورة النبى البطل ، إنّها واحدة النبرات متشابهة النغم ، ولكن صوتها يزداد ارتفاعاً كلما مر الزمن بانضمام المنشدين الجدد ، كلٌّ بما فى يده من قيثارة أو غيرها من آلات النغم إلى الفرقة العظمى [٣] » .

والاعتقاد بإمكان الاتصال بين الأحياء و « الأموات » ليس بدوره أمراً جديداً ، بل إنه يمثل عقيدة كانت معروفة وشائعة فى مجتمعات كثيرة ، فيروى المؤرخ « فسك » مثلا أن الاتصال بأرواح الموتى كان من أول العبادات التى عرفها أجدادنا على اختلاف أجناسهم ، التى عاشت فى أفريقيا وآسيا والصين واليابان . وفى الشعب الآرى الأوربى ، وفى قبائل الهنود الأمريكيين . كما يروى « آلين » أيضاً فى « تاريخ المدينة » أن القبائل المتوحشة فى كل العالم ذات إلمام

(٣) عن « فلسفة اليوجا » تأليف يوجى راما شاراكا ، ترجمه الأستاذ عريان يوسف سعد ص ١١١ .

بالنفس الإنسانية وعالم الروح والخلود بوجه عام... وأن الوفاة ما هى إلا خلاص الجسم عن طريق هذه النفس العجيبة التى يعتقدون أنها فى مكانٍ مَّا قريب ، وأن الحب والكره فى هذا العالم ينتقلان إلى العالم الآخر .

ويضيق المقام هنا عن تتبع هذه العقيدة عند الأقدمين فى البلاد المختلفة . بل يكفى فى مؤلّف موضوعه التقديم « للعلم الروحى الحديث » أن ننبه الأذهان – فى عجالة – إلى أن هذا الموضوع قديم ، وأن كل ما فعله الحديث هو أنه رضِىَ أخيراً أن يتواضع قليلا ، ويبحثه بالأساليب العلمية الحديثة ، فكانت المفاجأة الكبرى أنه جاز الامتحان بنجاح ، فى الوقت الذى كان قد استقرّ فى الأذهان أنه محض خرافة اندثرت مع تقدم العرفان إلى غير رجعة . فاضطر الباحثون العلميون إلى أن يراجعوا آراءهم المادية ويعيدوا صياغتها ، فإذا بها بعد هذه الصياغة الجديدة أثبت قَدَماً ، وأقوى على النقد وعلى مواجهة كشوف العلم المادّى نفسها التى أخذت تترى فى تدفّق مثير ، منذ عَرفت الحقائق الروحية سبيلها إلى الأذهان ، وفى تضامن مع التسليم بصحة هذه الحقائق .

وذلك إلى المدى الذى يدفع بعض الباحثين الروحيين ، إلى الاعتقاد بأن عالم الروح كان وراء هذه النهضة الروحية الباهرة ، كما كان من قبل وراء كل نهضة روحية عرفها الإنسان . « فعالم الروح قديم قدم الحياة ، وعالم المادة ظلّ باهت عليه ، وأولها خالد لا يفنى وثانيهما عرضة للفناء . ويمكن الآن اعتبار أثير الفضاء – كما يقول الأستاذ جيمس آرثر فندلاى مدير المعهد الدولى للبحث الروحى – هو حلقة الاتصال الكبرى التى توحّد ما بين عالم المادّة وعالم الروح ، لأن مادة الأثير مشتركة بين العالمين . وكلاهما محصور داخل هذه المادة ، وكلاهما جزء منها ، وكلاهما مكوّن منها . والعالمان جزء من كون واحد ، والحياة فى كليهما مقيدة به ، فهنا فى العالم المادى الذى نعيش فيه ، إنما نحس فقط بنوع من

الاهتزازات المنخفضة الدَّرجة ، أما فى عالم الروح حيث تؤدى الحياة وظائفها أيضاً ، فإن الوعى يتأثر بنوع من اهتزازات أعلى درجة .

وكلما أوغلنا فى البحث ستزداد اقتناعاً بهذه الآراء . لأنه من أحاديثى مع أولئك الذين يحيون تلك الحياة ، سنعلم أن عالم الروح حقيق ملموس جميل كهذا العالم الذى تدركه حواسّنا المحدودة ، بل إنه فى الواقع أكثر منه فى هذا الصدد »[٤] .

وفيما يلى سنمرّ على موضوع الروح من ناحية الاعتقاد فى خلودها ، فى عصور مختلفة من التاريخ ، وفى آداب مختلف الحضارات وفلسفاتها ، متوخّين أن نقدّم هذه العجالة بترتيب تاريخى ، فنعالج موضوع الروح عند الإنسان البدائى والفراعنة ، ثم عند الهندوس ، ثم عند الإغريق ، ثم عند العرب وفلاسفة الإسلام ، ثم فى عصور أحدث مما تقدم .

فكرة الروح[٥] عند الإنسان البدائى

كانت الجماعات البدائية فى جاهليتها الأولى تواجه حيثما كانت (لغز المجهول) فى نفوسها ، وفى كل ما يكتنفها فى مظاهر الطبيعة حولها ، وتحاول أن تبنى على ما تعانيه من هذه الظواهر الإنسانية والطبيعية ، أفكارها عن الإنسان وعن الطبيعة .

ولعل أروع ما واجهته هذه الجماعات فى نفسها من ألغاز المجهول (لغز الموت) ، وإننا لنتمثل الإنسان البدائى منذ أقدم العصور ، فى أول موقف له

---

(٤) « على حافة العالم الأثيرى » طبعة ثالثة ص ٤٤ .

(٥) من مقال للأستاذ / عبد الرحمن صدقى . مجلة الهلال العدد ١١ – نوفمبر ١٩٧١ .

أمام الموت ، وهو واقف على جثة رفيقه الميت حائراً مذهولاً ، وخاصة وهو قريب عهد بالميت ، يذكر كيف كان منذ لحظة مثله يَغْدُو ويروح ويتكلم ويفعل ، مثل ما يفعله سائر الأحياء .

فماذا دهاه ؟

إن كل شيء فيه يبدو عاديًّا فهو سليم البنية لم يُبتر منه عضو – صحيح الجوارح لم تصبه طعنة فى قلبه .. ولا كسر فى جمجمة رأسه ، ولا غير هذا وذاك من مواضع الإصابة فى المقاتل ، ومع ذلك فإن جسده برغم بنيته وصحة جوارحه ، قد بردت فيه حرارته وهمدت حركته .

فما هو ذلك الشيء الحى ، غير المنظور الذى كان فى هذا الجسد ثم فارقه ، فإذا الحياة قد فارقت معه الجسد – مع أنه – من حيث هو جسد ، لا يختلف فى مرأى العين عن جسد من هم على قيد الحياة لا يزالون ؟

وذلك الشيء الخفى سرّ الحياة فى الجسد الحىّ ، سرعان ما اهتدى إليه الإنسان البدائى حين انحنى على وجه الميّت ، فإذا به لا يحسّ نَفَساً يتردد .

من هنا استنتج الإنسان البدائى أن ذلك الشيء الخفى غير المنظور كالهواء ، هو فى أجسام الأحياء عنصر الحياة ، أى أن الروح من عنصر غير عنصر الجسم .

ولكن للقارئ أن يقول : إن هذا الاستنتاج وإن كان غير بعيد أن يقع للإنسان البدائى ، فإن الحكم بوقوعه له لا يخرج عن أنه حكم افتراضى لا يستلزم القبول ، وجوابنا على الاعتراض أنه صحيح ما لم يقم دليل يؤيده .

وعندنا لحسن الحظّ الدّليل ، وهو الوحيد الذى لا يمكن أن يكون فى مثل هذه الحال غيره . . ذلك الدليل ، هو ما أسفرت عنه الدراسة المقارنة للّغات منذ أقدم العصور ، من الابتعاد منذ أقدم العصور بالمدلول الأخوى لفكرة (الروح) عن كل ما هو جسدى إلى ما هو فى اعتقاد الأقدمين – لا مادى –

مثل نسمات الهواء ونفحات الريح . ففى القارة الآسيوية نجد اللغة السنسكريتية أقدم لغات الهند ، فى حضارتها الأدبية الدينية قد أطلقت على الروح و (الهواء أو الريح) لفظاً واحداً هو (ألمان Alman) كذلك لا يختلف الوضع عن ذلك فى اللسان الجاوى .

كما أن الدارسين لأحوال البقية الباقية من الجماعات البدائية فى غرب أستراليا قد لاحظوا على القوم هذه الظاهرة بعينها ، فى لغتهم وهذا بعينه كذلك ما يجرى حتى اليوم على لسان الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية .

وفى القارة الأوروبية منذ الحضارات القديمة اشتق اليونان من الفعل الذى معناه يتنفس كلمة : (Psyche)

ثم جاء الرومان فاستقوا من الفعل نفسه كلمة Psychicus وكلاهما بمعنى النفس أو الروح ، وكلنا يعرف معنى هاتين الكلمتين فى التركيب الأوروبى المنقول عنهما وهو (Psychocology) نقلناه إلى لغتنا بحروفه (بسيكولوجيا) (Psychology) بمعنى علم النفس ، كذلك نجد فى هاتين اللغتين القديمتين ذاتهما — اليونانية واللاتينية — كلمة Pneuto ومعناها الهواء ، وهو بمعنى الروح فى بعض فروع فلسفة ما وراء الطبيعة وهو المسمّى Pneutology أى (العلم الروحى) ونسوق أخيراً وليس آخراً — هذا المثل من أقدم اللغات السامية فى الشرق ، وهما العربية والعبرية ، وحسبنا فى بيان قدم لغتنا أن نذكر ما هو ثابت لدى علماء التوراة ، من أن أحد أسفارها وهو (سفر أيوب) مترجم للعبرية من العربية ، ثم نبدأ باللغة العربية فنقول : إن كلمة (الروح) فيها قريبة من (الريح) من حيث لفظها واشتراكها فى معظم الحروف ، بل إن كلمة الروح تشتمل فعلا على المدلولين معاً فهى (الروح) و (الريح الخفيفة) ، ومرادف الروح فى لغتنا (النَّفس) وهو أيضاً يقال : لفظ (النَّفس الأخير) بمعنى فاضت نفسه أو

صعدت روحه ، وتتفق اللغة العربية مع اللغة العبرية فى كلمة النفس بمعنى الروح ، مع فارق واحد فى اللفظ وهو أن حرف (السين) فى لغتنا هو (الشين) فى لغتهم . فالنفس عندهم (نفش) كما أن السلام عندهم (شالوم) .

ومما قدمنا يظهر أن الإنسان البدائى كان فهمه أول الأمر لحياته أن قوامها تحرك آلى يرجع إلى تركيبه العضوى ، وبعبارة أخرى كان وقوفه عند المادة على أنها الحقيقة الأولى والأخيرة ، ولكنه مع تطوره الحضارى أدرك أن عنصر الحياة فى جسده المادى غير مادّى ، بل شىء خفى هوائى كالريح ، بدليل اتفاق مدلولها اللفظى فى أقدم اللغات ، ولا شك أن هذا الإدراك الذى حققه الإنسان البدائى نحو إدراك الروح يعد نقلة كبرى ودرجة لها ما بعدها فى معراج الارتقاء الروحى لو استقام على الطريق .

من فكرة وجود الروح إلى خلود الروح

إذا كانت فكرة وجود الروح بوصفها قوة لا مادية ، تمثل عنصر الحياة والحركة فى الجسد قد تلقاها الإنسان البدائى كما قدمنا — من الموت — فإن بلوغ الإنسان البدائى إلى الفكرة التالية الأسمى عن (بقاء الروح) نشأت عنده من الأحلام .

أما كيف كان ذلك فالجواب عنه من البساطة بمكان ، وإلى السائل البيان :

لما كان الإنسان البدائى بعد جهده طوال نهاره فى السعى بوسائله القاصرة البدائية للحصول على طعامه وسائر ما يحتاج إليه فى عيشه ، سواء بالصيد أو غيره يغلب عليه كما يغلب علينا اليوم — سلطان النوم — الذى لا يغالب فينام ، فإنه لا محالة كان فى بعض الأحيان يحلم فى نومه بمثل ما نحلم به ، من الأحلام التى

تمت من قريب أو بعيد إلى حياتنا ، وما يشغل فيها نفوسنا من المخاوف والآمال ، فيرى ما يرى النائم – على سبيل المثال – فى بعض جولاته العادية أنه قد لقى أناساً ممن يعرفهم ، أو ممن لا عهد له بهم ، فدار بينه وبينهم هذا الحديث أو ذاك بالإشارة أو بعض الكلام ، وانتهى الأمر بما انتهى إليه من سلام أو خصام ، أو أنه خرج فى إحدى رحلات الصيد البعيدة فى الغابة أو فى الجبال ، فإذا الصيد غير الذى جاء مستعدًّا لصيده ، بل هو وحش من الوحوش الضخام شديد الضراوة ، فثبت له مع ذلك ولم يتراجع ، ولم يزل به يناوشه ويصارعه حتى صرعه ، بما أظهره – فى الحلم – من شجاعة فى القتال تفوق سائر من يعرف من الرجال ، بل ربما يكون أتى – فى حلمه – من الفعال ما هو فى حكم المحال .

هذه الأحلام أو غيرها كان الإنسان البدائى يحلم بها بطبيعة الحال ، والذى يعنينا من أحلام الإنسان البدائى ليس أحداثها بقدر ما هى الأحلام نفسها ، ذلك أنه كلما انتبه من منامه ألقى نفسه مع كل تلك الرحلات فى أحلامه راقداً فى فراشه لم يفارقه ، فلا غرو أن يكون تفسير ذلك عنده فى كل مرة تتكرر فيها هذه الظاهرة أنها هى روحه تفارق جسده فى أثناء نومه ، وتنطلق حيث شاءت لتحيا الحياة التى تشاؤها ثم تعود للجسد .

وعلى أساس هذا التفسير تقررت عند الإنسان البدائى العقيدة بأن الروح وإن حلت فى الجسد ، فإن لها وجودها المستقل عن الجسد .. وعلى أثرها عقد الإنسان البدائى المقارنة بين مفارقة الروح للجسد فى الحالتين : حالة نوم الإنسان وحالة موته ، فبدا له أن الروح تفارق جسد الميت كما تفارق الروح جسد النائم (على حدّ قولنا إن النوم موت أصغر والموت نوم أكبر) وأن الفارق فى الحالتين هو أن الروح فى حالة النوم تعود للجسد ، وفى حالة الموت لا تعود للجسد .

وبذلك يكون الإنسان البدائى بما أودع الله فيه من العقل – وإن يكن لمَّا يزل فى طوره البدائى – قد سجل لنفسه على طريقته وصوله إلى الإلمام بحقيقة من الحقائق الكبرى وهى (خلود الروح) .

اعتقاد خلود الروح ينحرف إلى التعبد لأرواح الأجداد

لما كانت روح الإنسان تقيم فى جسده طوال حياته ، فقد استقر فى تفكير الإنسان البدائى أن هذه الملابسة – طالت أو قصرت – تميل بالروح المفارقة إلى المرابطة بالقرب من جسد صاحبها الميت حيث كان بعد الممات .

ولكنه على الرغم من هذه الفكرة المثالية كان لا يتصور أن تصبر روح الميت على هذه السلبية ، فتبقى أكثر الوقت حبيسة فى القبر بجوار جثته ملازمة لها . وهذه هى أرواح الأموات تغادر مكانها جوار رفات أصحابها ، بعد أيام يتفاوت عددها باختلاف الجماعات وتمضى إلى حيث كانت تحيا معه ، وهناك تهيم حول كوخه الذى ربما أيضا كان مسقط رأسه ، وفى هذه الحالة يكون على أرملته وأولاده أن يتوخوا فى تلك المواعيد المقررة ترك الباب دون مغاليق تمنع دخول روح فقيدهم للزيارة الموعودة .

وبعد هاتين المرحلتين يكون للأرواح المفارقة أن تستمتع كل واحدة منها بحريتها ، فلا يقتصر غشيانها على الأمكنة التى كانت تغشاها مع جسد صاحبها ، بل تهيم فى سائر النواحى حيث شاءت فى الليل ، لأن النهار يخص الأحياء وحدهم ، ومن أجل هذا كان كل مكان – فى الغابة أو فى العراء فى الطريق العام أو فى منعطفاته الضيقة – موعداً لمسرى أرواح الموتى تحت جنح الظلام ، لا تراها الأعين إلاّ إذا شاءت أن تظهر لهم أطيافها لسبب أو لآخر . وهذه

الأرواح تستطيع أن تتعرض بالخير والشر للأحياء بحسب موقف كل واحد من هؤلاء منها ، قبل الموت وبعده ، فضلا عن إمكان تدخلها فى سير الأحداث ، باعتبار أن عدم تقيّدها بالجسد يكسبها قوة على مثل هذه الأمور الغريبة ، على الرغم من حاجتها إلى الأحياء فى أمور أخرى شخصية سيأتى ذكرها .

لذلك كان الإنسان البدائى يتحرّى رضا هذه الأرواح الهائمة لاعتقاده أنها وقد حرمت من الحياة تحسده عليها : تحسده على ما لا يزال ينعم به – دونها – من الحياة المستقرة فى بيته مع أفراد أسرته .. تحسده على ملء عينيه بنور الشمس واستمتاعه بدفئها ، وأكله من صيد البر والبحر وما تؤتيه الأرض من ثمرات .. تحسده على اشتراكه – بعد الطعام والشراب – فى حلقات الرقص فى الساحة وسط جلبة النساء والرجال ، وهم مع رقصهم ينشدون ، وقد نسوا من فرط الحبور أنفسهم فبلغوا قمة النشوة ثم يتفرقون ، وقد اصطحب كل رجل زوجته .

وتهدئة لما عند أرواح الموتى من موجدة الحسد للأحياء على كونهم أحياء ، لا يزالون يستمتعون بالحياة من دونهم ، كان على هؤلاء ألاّ يدعوا لاسترضائهم سبيلا إلا سلكوه ، فالإنسان البدائى فى أفريقية الشرقية وفى مدغشقر يبنى لأرواح الموتى خصاصاً من القش ، لتعتصم بها من الرياح والأمطار التى تكثر فى تلك الأصقاع ، وفى بعض البقاع من استراليا وجزائر الأقيانوس توقد بعض النيران بالقرب من مدافن الموتى ، حتى تستدفئ بها أرواح الموتى التى تشكو البرد ، وأمثال ذلك كثير .

ويلاحظ كذلك فى المدافن من قديمها إلى حديثها ، أنها غير بعيدة من مساكن الأحياء ، حتى يقوم ذلك دليلا لدى أرواح الموتى على حرص الأحياء على جوارها ، واستبقاء العلاقة الطيبة بينهم وبينها ، كما يضاف إلى ذلك ما تلتزم به كل أسرة من زيارة موتاها مرة أو أكثر من مرة كل موسم من المواسم فى كل

عام ، حاملين إليها معهم أنواع الزاد من الذبائح والخبز والفاكهة فضلا عن الأزهار ، والأمثلة على ذلك متوفرة منذ ألوف السنين فى مقابر المصريين . ولا غنى لنا عن التنبيه هنا إلى أن هذا الزاد وهذه الرياحين وغيرها وإن تكن صوراً على الجدران ، أو تماثيل تتحول إلى حقائق حية بقوة الرموز السحرية عند المصرى القديم ، الذى لا يرى مع السحر فرقاً بين الصورة والأصل والذى يلغى إيمانه بخلود الروح المسافة بين الميت والحى .

الاعتقاد فى وجود الأرواح يمتد إلى الجمادات

لم يقف الإنسان البدائى من بعد توفيقه إلى اعتقاد خلود الروح عند انحرافه – كما تقدم – إلى التعبد لأرواح الأجداد ، بل طرأ انحراف آخر أبعد أثراً وأطول أمداً ، على اعتقاده الأول (وجود الروح) ، حتى شمل كل ذى حركة فى الطبيعة كلها ، وهذا هو كلما نظر حوله فى الطبيعة إلى كائنات تتحرك – وما أكثرها – أعتقد أن كل كائن منها مثله يتحرك لأن روحاً تكمن فيه .

فالأشجار لا ترتجف أوراقها وتتمايل أغصانها إلا لأن فيها الروح ، والأنهار لا تجرى بين الصخور وتناغى الأسماع بنغم الخرير إلا لأن فيها الروح ، وكذلك البحر الواسع الرّحاب الممتد إلى آخر الأفق وهو زاخر اللجّة صاخب عجّاج من تلاطم الأمواج ، وأمثال ذلك إلى آخر ما هنالك .

وهكذا ازدحمت الطبيعة حول الإنسان البدائى بالأرواح ، فهناك روح لكل شجرة وأسرة من الأرواح لابد للغابة – ولابد على رأسها من الأرباب – مما يناسب الغاب وثمّة روح لكل نهر وأسرة من الأرواح لابد للبحر – ذلك العالم المائى الكبير – ولابد على رأسها رب وربة من الكبار ذوى المكانة . وعلى

هذا المنوال مضى الإنسان يتمثل الأرواح فى كل ما يلقاه على وجه الأرض ، حتى انتهى إلى الاعتقاد بأن حركة الحجر المتدحرج من قمة الجبل على السفح تقوم دليلا على وجود الروح فى الجماد ، وكان أروع ما أيد ذلك عنده (جبل النار) ذلك البركان الذى لا يرى فى قمته عند الهدوء إلا سحابة من دخان حتى إذا ثار.. إذا هو يقذف ذات اليمين وذات اليسار من قذائف النار ومصهور الأحجار ما يزلزل الأرض وينشر الموت والدمار . بل إن الصحارى الجرد نفسها لا تخلو من كثبان الرمال المتحركة فى مهاب الرياح ، فضلا عن أن ما يصدر عن تمدد رمالها بحرارة النهار وانكماشها فى برد الليل من التخلخل فى الرمال ينجم عنه حركة انهيار بطىء مستمر ، إذا سمعها الإنسان البدائى توهمها فى سكون الليل وسط القفار همسات أرواح الصحراء .

هذه بعض الظواهر الطبيعية فى الأرض ، أما فى السماء فإن الإنسان البدائى ما يكاد يطمئن إلى صفائها فى هذا اليوم ، أو ذاك حتى تجذب أنظاره قطع متحركة من السحب ، تسرى فى الفضاء متفرقة ثم تتجمع فيكفهر الجو.. وإذا الرياح التى كانت أنساماً لطيفة ناعمة تصير زوابع عاصفة ، تتواثب وتتضارب كالوحوش الضارية ، وفجأة تعلو على أصواتها جلجلة صيحات مروعة تتردد فى الآفاق من أصوات الرعود القاصفة ، بينما تشب فى جوانب السحب المظلمة هنا وهناك ، كألسنة النار تلك البروق الخاطفة ذات البريق الذى يخطف الأبصار .

فهل بعد ذلك يبقى عند الإنسان البدائى أدنى شك فى أن السماء أيضاً عامرة كالأرض بالأرواح وأن هذه الأرواح – مثل روحه أحياناً – تأخذها سورة من الغضب ، هى هنا كأشد ما يكون الغضب .

فى هذه الحال وغيرها من الأحوال – ما ذكرناه وما لم نذكره – كانت

تتحرك عند الإنسان البدائى رغبة ملحة لمعرفة السبب .

وكان الزعيم المهيمن على كل جماعة بدائية تأكيداً لسيطرته يعتمد على إيهامهم بما تلقنه من أرواح الأجداد ، من المعارف الغيبية الكفيلة بالرد على كل سؤال فضلا عن القوى السحرية القادرة على شفاء كل داء ورد كل بلاء .

ومن ثم كان هذا الزعيم المتطبب الساحر هو الذى يفسر لهم- بحسب اجتهاده - السبب فى غضب هذا أو ذاك من الآلهة المتمثلة فى العناصر الطبيعية ، ويدلهم قدر سعة حيلته على وسائل استرضائها بالقرابين وأداء الشعائر وغيرها . مع إبداء استعداده إذا استدعى الأمر إلى إكراهها بما لديه من القوة الفعالة السحرية .

ولم يكن هذا بمانع للزعيم كلما اجتمعت جماعته حوله ، من أن ينسج لهم الأساطير التى يجود بها خياله عن عجائب حياة كل من الآلهة المعبودة ، بما يميز بعضها عن بعض من حيث عظمة سلطانها وجبروتها ، أو براعة ذكائها وسعة حيلتها أو رجاحة عقلها وعمق حكمتها أو روعة محاسنها وسطوة فتنتها ، وهذا ما نراه منعكساً بصورة منتظمة مستكملة ومحسنة فى آثار الحضارات الوثنية الأولى وأقدمها حضارة مصر الفرعونية ، ومن بعدها الهند ، ثم اليونان التى حفظت لنا ملحمة (الإلياذة) عبر القرون أساطيرها الجميلة .

واعتماداً على تلك الأساطير ، يكون ما تعبد له الإنسان البدائى من رموز القوى الطبيعية متمثلا فى قوتين : أولاهما : قوة أرضية والأخرى سماوية .. وتتمثل الأولى فى (أمّنا الأرض) بما يمثله رمزها عند الإنسان البدائى من قوة الإخصاب الخلاقة .. فى كل ما تنبته بطنها من نبات يعيش عليه الأحياء .. وكل ما ينتجه الأحياء على ظهرها من حيوان وإنسان - وتتمثل القوة الثانية فى الأجرام السماوية ، وهى بالليل كالمصابيح المضيئة لا عدد لها ، من بينها

الكواكب السيارة التى عرفت الحضارات القديمة لكل كوكب منها مساره المحدود .. متنقلا بين البروج لا يخطئ المواعيد حتى زعم الأولون ومنهم الإنسان البدائى – أنها تجرى لهم بالنحوس والسعود .

أما الشمس أعظم الأجرام السماوية ، فقد عرف فيها الإنسان البدائى المركز الأكبر المشع للنور الذى يهدى والحرارة التى تحيى ، فجعلها – لا محالة – على رأس القوى الطبيعية المعبودة كلها ومن ثم كانت عبادة الشمس أقدم العبادات فى مصر صاحبة أقدم الحضارات .

وهذه القوى الطبيعية كلها التى كانت كما تقدم بنا – بمثابة (الأرواح) عند الإنسان البدائى – جاء بعد ألوف السنين فى القرن الرابع قبل مولد المسيح كبير فلاسفة اليونان أفلاطون فوجدها فيما أسماه Amma Mundi أى روح الكون . وخاتمة القول أن من حق الإنسان البدائى علينا وهو فى طوره الحضارى الأول ، أن نترك جانباً ما طرأ عنده على فكرة الروح من الانحرافات ، حين ضلّ الطريق ، وأن نجعل موقفنا عندما أصابه من التوفيق حين استكشف على طريقته أن جسمه المادى لا يقوم بذاته ، بل تحركه قوة خفية لا مادية ، فكانت فكرته الأولى عن (وجود الروح) ثم استكشف على طريقة له أخرى – أن هذه الروح التى هى جوهر لا مادى لا تهلك مع الجسد ، بل هى خالدة أبد الدهر ، فكانت فكرته عن خلود الروح ، وأيا كان نصيب هاتين الفكرتين من الموافقة عندنا أو عدم الموافقة ، فإن البشرية كلها قد وقع اتفاقها – مع كل ما بين الناس من خلافات – على جوهر هذه الحقيقة – (وجود الروح وخلودها) التى تعتبر لا محالة فى صورتها الدينية الكاملة من الحقائق الكبرى .

والواقع أن الإنسان البدائى قد نجح بالقياس إلى المرحلة التى كان فيها ، بين أواخر البدائية وأوائل الحضارية ، فما كان له أن يلمّ بأكبر مما ألمّ ، ولا كان له

بعد التوفيق ألا يضل الطريق كما ضل .

فالحقائق الكبرى فى صورتها الدينية الكاملة ، إنما ينهض بحملها إلى البشر أصحاب الأديان من الرسل والنبيين – الذين اصطفاهم لذلك رب العالمين ، ولكن إيماننا بالإنسان الذى خصه الله عن الحيوان بالجذوة المقدسة المستمدة من القبس الإلهى المسمى بالعقل .. ذلك الإيمان هو الذى حدانا إلى محاولة اجتياز ظلمات ذلك الماضى السحيق ، فى محاولة غير يائسة لبدء موضوعنا من البداية متدرجاً مع العقل المترقى ، حتى نقف عندما نحن عليه من العلم بالروح (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

الروح عند الفراعنة

تزخر النصوص المصرية القديمة بعقيدة المصرى القديم فى بدء الخلق ، وكيف حدث الخلق[٦] ، وهناك مدارس دينية عديدة لكل منها مذهبها الخاص ، ولكن أهم هذه المدارس هى مدرسة (منف) ، التى جعلت (بتاح) العظيم هو الخالق ، وطريقته فى الخلق تتلخص فى أن (بتاح) العظيم هو قلب الآلهة ولسانهم ، ويعنى ذلك أن (القلب) هو العقل أو الفهم فى حين أن اللسان هو رمز النطق ، والنطق هو الكلمة وفى الكلمة (الخلق) .

وهم يقولون فى ذلك إن (بتاح) هو القلب فى كل صدر ، وهو اللِّسان فى كل فم ، سواء فى ذلك جميع الآلهة وجميع الناس وجميع الماشية وجميع الزواحف وسائر الأحياء ، إن بتاح يفكر فيما يشاء ويأمر بما يريد ، إن الآلهة هى صور لبتاح ، وهى التى أوجدت بصر العين وسمع الأذن وتنفس الأنف لتصل

(٦) من مقال للدكتور / عبد المنعم بكر بمجلة الهلال العدد ١١ نوفمبر ١٩٧١ .

جميعاً إلى القلب ، والقلب هو الذى يصدر كل قرار ، واللسان هو الذى يعلن فكر القلب ، إن كل كلمة مقدسة خرجت إلى الوجود عن طريق ما ، فكرة القلب ونطق بها اللسان .

وإذا أردنا التعرف على حياة الناس ، وما هى عناصر هذه الحياة ومقوماتها ، سنجد أيضاً أن المصرى القديم قد ترك الكثير من النصوص التى تفسر لنا عقيدته فى ذلك ، ولو أننا نعترف أن هذه النصوص تحوى فى كثير من الأحيان غموضاً دفع العلماء إلى كثير من الجدل والاختلاف فى الرأى .

إن عملية الخلق المادى للإنسان تسند عادة إلى الإله (خنوم) ، فهو الذى يشكل الإنسان من طين وعصافة تماماً كما يشكل الإنسان آنيته الفخارية ، ولذلك صوّروا (خنوم) جالساً أمام عجلة الفخارى ، يقوم بتشكيل الإنسان ، أى يخلقه خلقاً ماديا وبعد ذلك يقوم بتشكيل جُسَيْم آخر ، هو ما أطلق المصريون عليه اسم (كا) ، ثم تنفث الآلهة (حفت) التى (صورها المصرى برأس ضفدع وجسم أنثى) روح الحياة فى هذين التمثالين الفخاريين ، وهكذا يتم الخلق . ولقد رمز المصرى القديم إلى روح الحياة بعلامة (عنخ) ، التى نتعارف على تسميتها (مفتاح الحياة) .

إلا أن المصرى منذ أخذ بفكرة الخلود بعد الموت ، بدأ يكوّن لنفسه صورة لطبيعة الإنسان كمخلوق حى ، لا يلبث أن يموت ، ويطلب لنفسه سعادة دائمة فى حياة خالدة تعقب الموت ، والواقع أنه لا يوجد شعب قديم أو حديث بين شعوب العالم احتلّت فى نفسه فكرة الحياة بعد الموت المكانة العظيمة التى احتلّتها فى نفس الشعب المصرى القديم ، ولا يمكن تفسير هذه الظاهرة إلا على أساس أن الناس الذين استقروا فى وادى النيل الأسفل (أى فى مصر) ، قد نعموا بحياتهم وسعدوا بها إلى درجة جعلتهم يحاولون جاهدين الإبقاء عليها حتى بعد الموت

من البلى ، إلى درجة لا تتوفر فى بقعة أخرى من بقاع العالم ، هذا مع العلم أن المصرى باستمرار كان يختار جباناته (مقابره) فى بطن الصحراء ، بعيداً عن الأرض المزروعة التى كان النيل يغطيها بمياه فيضانه مرة كل عام ، ولمدة تزيد على ثلاثة أشهر ، ولابد أن حالة الحفظ التامة للأجساد البشرية ، التى كان المصرى الأول يكشف عنها فى كل مرة يقوم فيها بحفر قبر جديد ، قد زادت اعتقاده فى بقاء تلك الجثث البشرية إلى الأبد ، وألهبت خياله بتصورات مختلفة عن عالم الموت ، وأخذ يعتقد فى أن الموت ليس إلا صورة من صور الحياة ، يفقد الإنسان فيها مقومات الحركة فقط ، ومن ثم نراه يتصور أن الموت لا يصيب إلا الجسد الخارجى ، فى حين تبقى عناصر أخرى هى التى تتمتع بالحياة فى دنيا ما بعد الموت .

وأهم ما ذكرته النصوص من عناصر الإنسان ومقوماته هى :

١ – جسم مادى (خت) : صندوق يحوى عناصر ستبقى بعد الموت .

٢ – الروح (با) .

٣ – القرين (كا) : النفس أو النفسية .

٤ – نورانية تنكشف فى الآخرة (آخ) .

٥ – قلب مدرك (أيب) .

٦ – اسم شخصى (رن) .

١ – ويقول (بتاح حوتب) من الأسرة الخامسة عن طبيعة الجسد وهو يعظ ابنه : إن العاقل هو الذى لا يستمع إلى نداء الجسد ، – وإذا ضل القلب وأطاع نداء جسده فإنه يكون قد أحل صَغَاره محل حُبّه ، ويصبح عقله تعساً ويسودّ وجهه بما جرّته عليه نفسه ، أما من اتّبع نداء الرّب فقد عزّت نفسه ، والقلب لا يشعر بالدفء إلاّ من فضل الرّب وحده ، ومن أطاع جسده كان

عدوّ نفسه . (فالجسد يعبر عن الجسد المادى وما يحويه من شهوة وشرور) .

٢ – و (البا) هى العنصر الذى نترجمه تجاوزاً (الروح) ، ولا يرد ذكره مطلقاً إلا فى الرسوم على جدران المقابر وتوابيت الموتى ، وقد صوره المصرى القديم على شكل طائر له رأس إنسان وذراعاه ، وتراه يرفرف على مومياء صاحبه فى تابوتها ، وهو يقدم لأنفها صورة شراع منشور ، وهو الرمز المصرى (للهواء) ، ويحمل فى يده الأخرى علامة (عنخ) أى الحياة ، ومن الملاحظ أن (البا) لا تظهر إلا عند موت الإنسان ، وكل النصوص المصرية تنص على محاولة جعل المتوفى (با) عند موته . ونرى الكاهن الجنازى يخاطب المتوفى الذى يرقد فى تابوته قائلا :

إن عظامك لا تفنى ولحمك لن يبلى وأعضاءك ليست بعيدة عنك : إن آلهة السماء تعيد لك رأسك ثانية ، وتجمع لك أعضاءك ثانية وتحضر قلبك لجسمك ثانية ، قم لخبزك هذا الذى لم يجف وجعّتك التى لن تفسد . إذ بهما تصبح (با) .

٣ – (الكا) : إذا اعتمدنا على النصوص ذات الطبيعة الدنيوية مثل التراجم الخاصة والتعاليم الخلقية والأسماء الشخصية ، نجد أن المعنى لا يستقيم إلاّ إذا ترجمنا (الكا) على أنها النفس أو النفسية ، وبتاح حوتب حين ينصح ابنه يقصد (بالكا) نفسية الشخص الحى (لا تتبر) وقت متعتك فكريهٌ على (الكا) – أى النفس – إفساد وقت متعتها . و (إذا تقاعد المرء على أن يرضى خلصاءه قال الناس هو (كا) أنانية أى هو نفس أنانية) . كذلك فإن الأسماء الفرعونية (كا وعب) تعنى نفسا طاهرة و (كامنخ) أى نفسا فاضلة و (مريروكا) بمعنى محبوب النفس . وقد عبر المصريون عن (الكا) بصورة ذراعين مرفوعتين إلى أعلى ، ونحن نجد من بين نصوص مذهب (هليوبوليس)

التى تتحدث عن الخلق الأول الذى قام به (آتوم) : (آتوم الذى أوجد نفسه بنفسه ، وعاش فريداً أمداً بعيداً حتى ذرأ من نفسه ذكراً وأنثى ، ثم مد ذراعيه حولها (أحاطها بساعديه) بمقدرة (الكا) . واعتقد المصريون أن (الكا) تبقى فى جسم صاحبها ما دام حيًّا فهى تولد معه وتعيش معه .

وفى اعتقادنا أن هذا التصور لا يزال باقياً عندنا حتى الآن . فعندما يجرى طفل ويقع على الأرض نجد أمه تسارع إليه قائلة : (اسم الله عليك وعلى أختك اللى أحسن منك ..) فإن كانت ترى أن الطفل لم يصب بسوء إلاَّ أنها تخشى أن تكون الأخت (الكا) قد أصيبت بأذى . وقديماً اعتقد المصرى أن (الكا) ستنفصل عن الجسد فوراً بعد الموت ، ولكنها ستبقى بجانبه وهى العنصر الذى سيعيش إلى الأبد ، إلا أن هناك ضمانات متعددة تتحكم فى نوعية هذه الحياة ومدى السعادة التى سترفرف على (الكا) ومن هذه الضمانات :

(ا) تحنيط الجثة حتى تحتفظ بصورتها الدنيوية لتتعرف عليها (الكا) .

(ب) المقبرة تجهز بحجرة دفن تحتوى تابوتاً ضخماً من الحجارة للمحافظة على الجثة ، وسميت المقبرة عند المصريين (منزل الأبدية للكا) .

(حـ) تكديس المأكل والمشرب والأثاث .

(د) إقامة تماثيل تعرف باسم تماثيل (الكا) لكى تتجسدها عند تقدمة القرابين .

(هـ) وقف مساحات شاسعة من الأرض المزروعة لصرفها أو ريعها على تقدمة القرابين ، ومن الطريف أن المصريين القدماء تخيلوا وجود جنة سماوية ، إلا أنها كانت طوال عصر الدولة القديمة وقفاً على الملوك .

٤ – (**الآخ**) : عنصر معنوى بحت يعبر عن فضائل كثيرة (البهاء – الجلال – الصلاح – النبل – القداسة) ... (الآخ للسماء والجسد للأرض) .

ولقد وصف أحد فصول كتاب الموتى (بردية آنى) نعيم الآخرة بصفات معنوية ، كما صور الفارق الكبير بين ظلمة المقبرة فى باطن الأرض ووحشتها ، وبين راحة النفس التى تنتظر الصالحين فيها (حقًّا إنَّها بغير ماء ولا هواء) ؛ عميقة مظلمة وقصية لا حد لها ولا نهاية ، ومع ذلك فيعيش الصالح فيها سعيد النفس ، فهى أرض لن تمارس فيها شهوات الجنس ، ويصبح الإنسان فيها (آخا) لا يحتاج إلى ماء ولا هواء ولا متعة الجنس ، ويوهب فيها راحة القلب بدلا من الطعام والشراب .

٥ – (**الآيب**) القلب : عضو مادى فى الجسم كذلك عبر به عن معانى العقل والضمير والإرادة والوجدان .. (إن قلب الإنسان هو حياته ونعيمه وسلامته) و (أن ما تراه العينان وتسمعه الأذنان ويشمه الأنف يرق جميعه إلى القلب) .

والقلب هو الشاهد الذى يعتمد القاضى الأكبر (أوزوريس) على أقواله فيحكم على صاحبه ، إما بدخوله الجنة أو إلقائه فى النار ، واعتادوا تصوير القلب فى كفة الميزان وريشة العدالة فى كفته الأخرى ، ومن زادت أعماله الحسنة كان هو الذى يدخل جنة (أوزوريس) .

٦ – (**الاسم : رن**) : اعتبر المصرى القديم اسمه الشخصى جزءاً هامًّا من كيانه ، يتميز به فى دنياه ويتأكد به خلوده وسعادته فى أخراه ، فاهتم بتخليد اسمه على آثاره حتى يردده الأحياء بعد وفاته .. واعتقد أن ما يلحق باسمه من شرّ يلحق أيضاً بصاحبه .. وأن الإنسان يستطيع الإضرار بأعدائه أحياء كانوا أو موتى ، عن طريق الإضرار بأسمائهم بالمحو أو بالسحر . فقد كان الاسم من أهم عناصر صاحبه ، حتى أن (تحوتمس الثالث) عندما أراد الانتقام من (حتشبسوت) محا اسمها من فوق جميع آثارها .. وكذلك صنع إخناتون عندما أراد أن ينتقم من آمون ..

خلاصة القول عن
الحياة الآخرة والنفس عند الفراعنة[٧]

لعل أروع ما فى العقيدة المصرية القديمة ، اعتقادهم الحياة الآخرة ، وأنها الباقية بعد هذه الدنيا الفانية . فقد كانت هذه الدنيا فى نظرهم فترة قصيرة ، وبعدها حياة لها أمد غير محدود . بل إنَّ دنيانا ليست إلاَّ ممرا إلى ذلك الخلود ، وقد قام اعتقادهم بالحياة الآجلة بعد هذه العاجلة على أساسين .

أحدهما : إن هذه الدنيا معترك يتنازع فيه الشر والخير والبر والفاجر ، وكثيراً ما نرى فى هذا المعترك الشر ينتصر على الخير . والفساق على الأبرار . فلو لم يكن هناك يوم كله للخير . وكله على الشر ، يحاسب المسىء على إساءته ويكافأ المحسن بإحسانه ما استقام العدل الإلهى . فمن العدالة الإلهية إذن أن يكون يوم آخر ، يكون للأبرار على الفجار ، وللأطهار لا للأشرار ، وأن تكون الحياة الباقية ليتنصر فيها الخير ، وينتصف فيها من الشر .

ثانيهما : اعتقادهم فى النفس الإنسانية فهم يعتقدون وجود نفس تنفصل عن الجسم ، وإن كانت تحلّ فيه . **وأن تلك النفس ذات أربع شعب** :

إحداها : الروح وهى أساس القوى فى الإنسان .

والثانية : العقل والإرادة .

والثالثة : صورة من الأثير أو مادة أدق على هيئة الجسم تماماً .

والرابعة : الجوهر الخالد السامى الذى يشترك فيه الإنسان مع الآلهة ، وهو

---

(٧) عن كتاب مقارنات الأديان – الديانات القديمة – الشيخ محمد أبو زهرة – دار الفكر العربى .

سرّ الوجود والعلوّ . وهذه الشعبة من شعب النفس متصلة بعالم الآلهة ما دام الإنسان على قيد الحياة ، فإذا مات اتّصلت به اتّصالا وثيقاً فأما الروح فهى التى تظل تتردد على الإنسان فى قبره إلى أن يجتاز الحساب . ويصل إلى مرتبة الثواب . وعندئذ تعود إليه فيشعر بما يشعر به الأحياء .

ولقد كانوا يعتقدون أن النفس لا تعيش إلا إذا كان الجسم سليماً ، وسلامته هى التى تجعله صالحاً لعودة الروح إليه بعد أن فارقته بالموت ، ولذا بذلوا أقصى الجهد فى سبيل المحافظة على الجسم . وجعله صالحاً لحلول النفس فيه بعد الموت . وقد بعث ذلك فيهم الحيلة لأن يخترعوا تحنيط الموتى وبقاء المومياء على هيئة من التماسك وعدم التحلل لكى تعود النفس إلى غلافها . ولقد اجتهدوا مع ذلك فى إقامة تماثيل للموتى تشبه أجسامهم تمام الشبه . لكى تحل فيها النفس إن كان الجسد غير صالح . وقد عدّدوا التماثيل للميت الواحد ، لأنه عسى أن يكون أحدهما غير صالح فيكون الآخر صالحاً ، ولكى تكون الروح فى فسحة من الأماكن ، فتنتقل من هذا إلى ذاك .

وكانوا يعتقدون أيضاً أن الميت أو روحه فى العالم الآخر يحتاج إلى ما يحتاج إليه الأحياء فى هذه الدنيا من طعام وشراب . وأن ما يقدم من ذلك فى الدنيا قرباناً على أرواح الأموات يفيدهم فى الآخرة . ولذلك تكون روح الميت فى أشد الألم إذا لم تقدم القرابين من طعام وشراب ، وما إلى ذلك من مطاعم الأحياء فى الدنيا .

ولهذه المعانى والخواص التى وصفوا النفس الإنسانية بها ، وللعدالة الإلهية التى تسود الأكوان ، اعتقد قدماء المصريين أنه لابد من حياة أخرى فيها النعيم المقيم للأخيار ، والعذاب الأليم للأشرار ، ثم إنه قبل أن يصل الميت إلى الثواب أو العقاب لابد من الحساب ، والحساب يكون أمام محكمة تتألف من اثنين

وأربعين قاضياً يرأسها (أوزيريس) نفسه ، وتسأل المحكمة الشخص عما قدم من خير ، وما قدمت يداه من شر. وقد خاض المؤرخون فى بيان الفضائل التى كانت تعد فضائل فى نظر المصريين فى هذا المقام ، وقوام هذه الفضائل سلبى ، دعامته عدم إلحاق الأذى والضرر بغيره من الناس ، وإيجابى دعامته نفع الناس وإطعام القانع والمعتر ، وإذا انتهى الحساب أمر المحاسب أن يمر على الصراط ، وهو طريق ممدود فوق الجحيم ، فإذا اجتازه الشخص نجا وارتقى إلى مرتبة الآلهة ، وإذا سقط من فوقه انتهى إلى واد فيه الأفاعى والحيات التى تتولى عقابه بقسوة ، حتى ينال الجزاء الأوفى على ما قدمت يداه .

ونرى من هذا أن الأبرار من الأموات يرتفعون إلى مرتبة الآلهة ، ولهذا سرى عندهم عبادة الموتى ، وأضافوا إليهم صفات الألوهية وخواصها فى نظرهم ، بل إنهم كانوا يعتقدون أن أرواح موتاهم تتصل بعالم الأحياء وتنبئهم بأسرار المستقبل ، فتحذرهم مما عساه يكون فى سبيلهم من أخطار ، وتبشرهم بما عساه ينالهم من خير ، وقد ملئت أساطيرهم بشىء كثير مما يؤيد اعتقادهم فيما يزعمون .

كتاب الموتى :

– هو كتاب مشتمل على آداب وفضائل ، وعلى ما تلقّنُه الروح لتحسن الإجابة أمام محكمة الحساب ، وهو يعد الكتاب الأعلى عند قدماء المصريين . يتعبدون بتلاوته وهم أحياء ، ويوضع معهم فى قبورهم وهم أموات يزعمون أن أحد الآلهة قد كتبه بيده ، وقد جاء عن منزلة الكتاب فى أحد أبوابه « أن الكتاب يعلى شأن الميت فى أحضان (رع) ، ويَحْبُوهُ السَّبْق لدى (توم) ، ويجعله عظيماً لدى (أوزيريس) ، ومرهوب الجانب لدى الآلهة . وكل ميت وضع له

هذا الكتاب تخرج روحُه نهاراً مع الأحياء ، وتصعد إلى الآلهة ، ولا يعترضها عارض من أحد ، تدنيه الآلهة منها ، وتلمسه لأنه شبهها ، ويقفه هذا الكتاب على ما حدث منذ البدء . هذا الكتاب خفيّ . وهو حق لم يعلم به أحد . إنه ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت . إنه لا يراه أحد سواك . ومن علمك إياه فلا تزد عليه شيئاً من خواطرك وخيالك . بل قم بما يدعوك إليه وسط بهو التحنيط . إنه لا يصل إليه عامى . إنه غذاء الميت فى عالم الدنيا . وقوت روحه فى الأرض ، يجعله حيًّا دائماً فلا يعلو عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء » .

والكتاب مشتمل على جميع الكلمات السحرية التى تستعمل لعلاج الأمراض ، ويشتمل على الصلوات والأدعية ، وعلى ما يجب للميت من تحنيط ، وطقوس دينية ، ويحكى ما يقوله الميت الذى أقيمت له الطقوس التى يدعو إليها الكتاب ، فيقول « عندئذ يقول : تحية لك يا أبى أوزيريس لقد حنطت لحومى هذه ، ولن يتحلل جسمى ، فأنا كامل غير محسوس مقتدياً بك يا أبى أوزيريس ، حبَّذَا الإله فى صورة رجل لا يتحلل جسمه .

وفى الكتاب فصل قيِّم بما ينبغى أن تقوله الروح أمام محكمة الآلهة فى اليوم الآخر ، وقد سمَّاه شامبليون اعترافاً سلبيا ، وإليك بعضه : « يا سادة الحقيقة ، إننى حامل الحقيقة ، إننى لم أخُنْ أحداً ، ولم أغْدُر بأحد ، ولم أجعل أحداً من ذوى قرابتى فى ضنك ، ولم أقم بِدَنِيَّةٍ فى موئل الحقيقة ، ولم أمازج عملى بِشَرٍّ قط ، وجافيت الضرّ والأذى ، ولم أعمل باعتبارى رئيس أسرة ما ليس من عمل ربها ، ولم أكن سبباً فى خوف خائف ، ولا إعواز معوز ، ولا ألم متألم ، ولا بؤس بائس ، لم أقدم على ما لا يليق بالآلهة فلم أجع أحداً ، ولم أبك أحداً ، ولم أقتل نفساً ، وما حرضت أحداً على قتل أو خيانة ، ولم أكذب . ولم أسلب المعابد ذخائرها ، ولا المومياء طعامها . ولم أرتكب أمراً لا يليق مع كاهن

فى كهنوته . ولم أغل فى الأسعار ، ولم أطفف الكيل والميزان . ولم أسرق الماشية من مرعاها ، ولم أطفئ الشعلة فى ساعتها . ولم أخدع الآلهة فى قرابينها المختارة . فأنا نقى ، أنا نقى ، أنا نقى » .

وجاء فى الكتاب أيضاً ما تقوله المحكمة عن الميت الذى تزكيه أعماله « ليس فيه شر ولا خطيئة ولا فساد ولا دنس ، وليس عليه اتهام . ولا فى أعماله ما يثير الاعتراض ، فقد عاش من الحق وتغذى بالحق ، وإن فعاله لتشرح الصدور ، وهى مما يطلبه الرجال ، ويسرّ الآلهة ، وقد أخلص للآلهة محبته . وأعطى الخبز من كان خاوياً ، والماء من كان صاديا ، واللباس من كان عارياً . وأعار الزورق لمن ليس عنده .... » .

ويقول جوستاف لوبون[٨] فى التعليق على هذا الكلام : « ألا يظن من يقرأ هذا الكلام أنه يسمع صوت قرون سحيقة ، تتكلم من قبل بوذا والمسيح ، معلنة قانونها اللطيف للإحسان والنفع العام » .

وفى الحق أنه مهما تكن فى الديانة المصرية القديمة من أوهام وعقائد فاسدة ، ولا تستمد من المنطق قوتها . فإن الآداب التى اشتملت عليها والفضائل التى تدعو إليها . خصوصاً الجانب السلبى منها . كانت معيناً خصباً ، قبست منه الديانات غير المنزلة وحكمة الحكماء شيئاً كثيراً . لأنها لم تخل من خير يقتبس وحكمة تقتنص . ولله فى خلقه شئون .

---

(٨) مؤلف كتاب : مقدمة الحضارات الأولى .

الروح عند الهندوس[٩]

فى آسيا يعلم الناس الكثير عن الروح ، وعن عالم الروح ، وعن إمكان الاتصال بين عالمى الروح والمادة . ويعتبر أقدم الديانات فى العالم أجمع الآن هى الديانة الفيدية ، وهى الشكل الفطرى الأول للدين الهندوسى المأخوذ عن كتب الإله « فيدا Vedas » الأربعة المكتوبة باللغة السنسكريتية ، والمنسوبة إلى وحى نزل من السماء على براهما . وهذه الكتب هى ساما ، ورج ، وياجور ، وأثارفا . وتشرح الفيدات طبيعة براهما الإله الخالق الذى هو « أتما » أو النفس الخالدة فى الإنسان ، وتصور الكون كنسيج متطور مع كيان الله ، كما تجعل امتزاج الفرد مع الله صورة لامتزاج النفس مع الروح .

والفيدنتا تلخص الفيدات الأربعة ، وقد أعجبت كثيراً من مفكرى الغرب وفلاسفته . وقد وصفها المؤرخ فكتور كوسان قائلا : « إننا حينما نطالع بإمعان فلسفة الشرق – وخصوصاً الهندية منها – فإننا نقف على كثير من الحقائق العويصة التى تكرهنا على أن ننحنى إجلالاً للفلسفة الشرقية ، ونرى فى هذا المهد للجنس البشرى موطناً لأسمى ضروب الفلسفة ... » كما يقول فيها شبيجل : « إن أسمى فلسفة أوروبية وهى مثالية التفكير ، كما وضعها الإغريق تبدو – متى قورنت بالحياة والنشاط الزاخرين للفلسفة الشرقية المثالية – كبصيص ضوء مقابل فيض كامل من ضوء الشمس .. » .

وهى مؤسسة على عقيدة خلود الروح ، والعودة إلى التجسد أو رجعة

---

(٩) الإنسان روح لا جسد للدكتور رءوف عبيد .

الروح ، والإيمان بإله واحد ، وبالسماء التى تصعد إليها الأرواح الصالحة فيتلقاها « ياما » الذى يرفعها إلى الجنة حيث تنعم بكل اللذائذ الأرضية التى تكون قد اكتملت وأصبحت أبدية . وقد وصف أحد هذه الكتب السماء الفيدية بأنها « المقام المقدس والمقر النهائى للآلهة الخالدة ، وموطن الضوء الخالد الذى هو الأصل ، والقاعدة فى كل ما هو كائن . وحيث تتحقق الرغبات بمجرد أن تنشأ » . وهذا الوصف هو تقريباً ما تصف به الكتب الروحية الحديثة عالم الأثير ، مع أن كتب فيدا هذه تتجاوز فى قدمها حتى تاريخ الفراعنة الأقدمين ، مما يحمل على الاعتقاد بأن وسطاء الهندوس ، قد تلقوها بدورهم عن طريق الإلهام من أرواح راقية ، تقيم فى عالم الأثير بحسب الوصف الحديث .

والديانة البرهمية غاصة بالحقائق الصحيحة الكثيرة فى حياتها الأرضية والسماوية ، وبالنصائح الخلقية التى يؤدى اتباعها إلى خلاص الروح فى حياتها معاً ، وإلى استحقاق النعيم فى عالم الملكوت ، كما تؤمن بأن الروح الإنسانية نفحة إلهية ، وأن الموت يعطى الروح جسداً شفافاً نورانيًّا ينتقل إلى الملأ الأعلى ، وأن هذا الجسد وإن كان ماديًّا فى مظهره ، إلا أنه من طبيعة غير ترابية ، بل أرقى من أجسادنا الفانية ، وفى علم الروح الحديث ما يتفق مع هذه المعانى أيضاً . وتؤمن المذاهب السائدة فى البوذية بوجود جنات حول جبل « ميرو » الذى سفحه من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة ، ومقسم إلى عدة طبقات ، فى كل طبقة أهلها من الصالحين على حسب درجاتهم ، وفوقها جنات أخرى كثيرة ، حتى تنتهى إلى جنة علوية فى السماء ، يحيا فيها الأبرار فى سعادة مطلقة .

يعد مذهب اليوجا الهندى بوجه خاص من المذاهب الشرقية الهامة فى الفهم

العميق للروح ، إلى حد أنه يثير دائماً اهتمام الباحثين الروحيين فى الغرب والشرق عند معالجة موضوع الأرواح . والإيمان بالروح وبالخلود يبلغ ذروته عند أتباع هذا المذهب بوجه خاص ، بما يستتبعه الإيمان من وجوب اتباع أنظمة صارمة من الزهد والتقشف وضبط النفس ، للوصول إلى المواهب الروحية القوية ، حتى أن جبابرة الروح فى الهند ممن يحققون الخوارق الوساطية التى تحير ألباب علماء الغرب ، يكثرون عادة من أتباع هذا المذهب ، الذين لا يصرفهم شىء من أعراض الدنيا الزائلة عن مشاغلهم الروحية .

ويروى المؤرخون أن الإسكندر الأكبر عندما ذهب إلى الهند فاتحاً ، أراد عندما وصل إلى تاكسلا بشمال الهند أن يرى (دندامس) المعلم اليوجى الهندى العظيم ، فبعث إليه (أونسكريتوس) أحد طلبة مدرسة (ديوجينس) الإغريقية ليأتيه به . وقال (أونسكريتوس) بعد أن عثر على (دندامس) فى مخبئه فى إحدى الغابات « تحية وسلاما ، أى معلم البراهمة .. إن الإسكندر ابن الإله العظيم (زفس) ، وسيد الخلق أجمعين ، يطلب منك أن تذهب إليه . فإن فعلت أجزل لك العطاء ، ولكن الويل لك إن أبيت فسوف تدفع رأسك ثمناً لهذا الإباء » .

وتلقى الحكيم اليوجى هذه الدعوة الإرهابية برباطة جأش ورد عليها ردًّا طويلا ساخراً نقتطف منه ما يلى : « إن الإسكندر ليس إلهاً ، إذ هو لابد ذائق الموت ، وكيف يكون مثله سيداً للكون فى حين أنه لم يتربع بعد على عرش السلطان الداخلى ، ولم يدخل للآن حيًّا إلى الهاوية ، ولا يعلم سير الشمس فى أقطار الأرض الوسطى ، ولم تسمع الدول المتاخمة ولو قدراً يسيراً عن اسمه ؟ » ..

ثم استطرد الحكيم الهندوسى قائلا « وإذا أطاح الإسكندر برأسى فلن يقوى

على تحطيم نفسى . ورأسى الذى يصمت سوف يبقى ويخلف الجسد كرداء ممزق على الأرض التى جبل منها . وكروح أصعد حينئذ إلى الله الذى سوَّانا جسداً . ووضعنا على هذه الأرض لكى نثبت له فى وجودنا عليها ما إذا كنا نحيا فى طاعته ، والذى يتطلب منا حينما نقف أمامه أن نقدم حساباً عن أعمالنا ، إذ أنه ديان جميع المعاصى ، كما أن آنات المظلوم ستصبح عقاباً للظالم .

دع الإسكندر يرهب بهذا الوعيد أولئك الذين يطمعون فى الثراء أو يخشون الموت ، اللذين هما سلاحان مفلولان بالنسبة لى . فالبرهميون لا يتعشقون الذهب ولا يرهبون الردى . اذهب وقل للإسكندر : إن (دندامس) ليس بحاجة إلى شىء من مالك ، وبالتالى يرفض أن يجىء إليك . أما إذا كنت فى حاجة إلى (دندامس) فتعال أنت إليه » .

وتلقى الإسكندر بانتباه عميق جواب اليوجى على لسان (أونسكريتوس) وأحسّ برغبة متزايدة فى رؤية (دندامس) الذى كان برغم عريه وتقدمه فى السن الخصم الوحيد الذى وجد فيه مدوخ الأمصار ندًّا حقيقيًّا[١٠] ، وهو فى الواقع الروحى أكثر من ند بكثير .

وعموما فهناك مبادئ ثلاثة تؤثر أعمق الأثر فى العقلية الهندية[١١] :

المبدأ الأول : تجوال الأرواح : فالهنود يعتقدون أن الأرواح جائلة متنقلة فى أطوار شتى من الوجود ، وفى طريقها إلى هدفها الأخير تنتقل من جسد إلى جسد سواء أكان إنساناً أم حيواناً – وهذا المبدأ يعرف عادة بتناسخ الأرواح .

---

(١٠) « فلسفة الهند فى سيرة يوجى » للحكيم برمهنسا يوجا نندا ترجمة الأستاذ زكى عوض المحامى ٤١٢ – ٤١٤ .

(١١) عن كتاب : مقدمة فى أصول النظم الاجتماعية والسياسية للدكتور أحمد عبد القادر الجمال طبعة أولى سنة ١٩٥٧ – مع بعض التصرف .

المبدأ الثانى : الأعمال : يعد هذا المبدأ متمماً لمبدأ تجوال الأرواح . وهو لا يعلل فقط حقيقة أدوار الميلاد المتكررة التى تنتقل فيها الأرواح ، بل يبين أيضاً شرائط هذا الميلاد وما يستتبع ذلك من عدم المساواة الصارخة فى المصير البشرى . يقوم هذا المبدأ على أن كل عمل يأتيه الإنسان له ثمرته حتمًا ، وأن كل شيء يقابله الإنسان فى كل طور من أطوار الوجود المتكررة تقرره الأعمال التى يأتيها فى الوجود السابق وهى بمثابة كفارة .

وقد عرف الهنود الآريون كما عرف العبرانيون فيما بعد ، أن الجزاء فى هذه الحياة الحاضرة لا ينسجم مع الإنسان وأخلاقه ومولده وثروته وسعادته وآلامه – كلها – جاء الجزاء الذى تستحقه أعماله التى أتاها فى وجود سابق صالحة كانت أو شريرة .

المبدأ الثالث : الانطلاق : ومعناها محاولة النفس الإفلات من دورات تجوالها ونتائج أعمالها ، فالحياة الشخصية فى عرف القوم شر وخداع ، أما الحياة الحرة فهى استجلاء طَلْعَة : (براهما) التى لا تكتسب إلا بالاندماج فيه . وهدف الحياة الأسمى هو الانطلاق من دورات الوجود المتوالية والاندماج فى الكائن الأسمى .

الروح عند الصين واليابان[١٢] – الكونفوشيوسية والبوذية

وهذين الشعبين يختلفان عن الشعب الهندى فى النظر إلى مسألة الروح ، فالهندى يتميز بالانغماس فى الأشياء الروحية والتفكير العميق فى الله ، فالدين هو الذى يُشرِّع فى الهند ، أما فى الصين واليابان فإن العقل هو الذى يشرع لها ،

(١٢) المصدر السابق .

فالأديان الثلاثة الشائعة عندهما هى الكونفوشيوسية والبوذية والتآورزمية .. وقد يعتنق الفرد الأديان الثلاثة فى وقت واحد ، ولكن الدين فى الصين قبل عصر كونفوشيوس (أى قبل القرن السادس قبل الميلاد) كان يقوم على ثلاثة أصول هى : عبادة الإله الأسمى - عبادة الأسلاف - عبادة الأرواح .

وكان للإمبراطور وحده حق عبادة (شغتاى) الإله الأسمى - نائباً - عن شعبه .. أما الدين الحقيق لشعب الصين فكان عبادة الأسلاف ، والأرجح أن هذه العبادة كانت أولا ضرباً من ضروب تكريم الميت بعد الوفاة . أما ما يهمنا من هذه العبادات الثلاث فهو عبادة الأرواح . وهى عبادة لم تغب قط عن بلاد الصين .

كما لم تنفصل أبداً عن أسمى ما فيها من عبادات ، فإلى جانب عبادة الإمبراطور للإله (شغتاى) ترى لوحات تمثل الأباطرة السابقين ، ولوحات غيرها تمثل الشمس والقمر والنجوم والغيوم والأمطار والرياح ، موضوعة إلى جانب لوحة الإله العظيم أو فى مقام منخفض عنها .. وهو أمر نعرف منه كثيراً عن حقائق الروح والخلود والصلات بين العالَمَيْن .. لكن كونفوشيوس كانت تعاليمه الخمسة هى : رعاية العلاقة بين الأمير والرعية - العلاقة بين الأب والابن - علاقة الأخ الأكبر بالأخ الأصغر - علاقة الزوج بزوجه - علاقة الصديق بصديقه .

ومن أقواله : « لم نتمكن حتى الآن أن نؤدى واجبنا نحو الإنسان فكيف نؤديها نحو الأرواح ؟ » لذلك نجده قد أبى أن يصرح بشىء عن الحياة بعد الموت ، حتى لا يخوض فى أمور لا يدريها .

وفى اليابان نجد أن البوذية منتشرة بها ومتمثلة فى طوائف عديدة ، وقد تطورت تلك الطوائف وهى طائفة الشنتوية التى تعد أكبر وأنشط الطوائف

البوذية اليابانية ، وهى تعتبر بوذا « جوهراً إلهيًّا حالا فى الكون ومتمثلا فى أوضاع مجسمة شتى » .

* * *

وفى الصفحات التالية رأينا أن نقدم للقارئ ماكتبه المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة فى كتابه مقارنات الأديان عن آراء بوذا فى النفس والروح ومذهبه فى ذلك الوقت الذى يدين به أكثر من سدس سكان العالم . يقول المرحوم الشيخ :

آراء بوذا والإلهيات : (١٣)

ثبت أن بوذا كان عاكفاً على دراسة واحدة هى التى جعلها عماد نظره ، وقوام بحثه ، والأساس الذى بنى عليه ديانته ، أو بعبارة أدق مذهبه الخلقى ، وتلك الدراسة كان موضوعها تخفيف ويلات الإنسانية ، والقضاء على الشقاء فى هذه الحياة ، واجتثاثه من أصله .

ولكن قوماً من الباحثين ادعوا أنه أنكر حقيقتين ، وهما : الألوهية ، والنفس الإنسانية .

أما الأول فقد زعم بعض المؤرخين أنه روى عن بوذا أنه أنكر وجود إله أنشأ الأكوان . ويقولون أنه كان يقول : وما الإله ؟ أهو العناصر نفسها ؟ لئن كان ذلك ، ماكان فى الأمر جديد غير وضع اسم على شىء ، ويقول أنصار ذلك . إنه كان يعتقد أن فى العالم فقط روحاً عامًّا متغلغلا فى كل شىء .

وأن الذى نعتقده أن بوذا لم يتعرض للبحث فى الألوهية بسلب أو إيجاب ، وأن مذهبه إصلاحى اجتماعى خلق أكثر منه دينى ، ولذا لم يتعرض للاهوت ،

(١٣) من كتاب مقارنات الأديان للشيخ محمد أبو زهرة .

ولعل العبارة التى وردت فى بعض الروايات كانت فى أثناء حيرته وهو منهمك فى الأدغال والأحراش ، هائم على وجهه يطلب الحقيقة ، بل إن العبارة يبين من لحنها واستفهامها أنها عبارة شاك متحير لا عبارة منكر جاحد . إن أولئك الذين يعتمدون على تفكيرهم الخاص فى الوصول إلى الحقيقة يعتريهم مثل ذلك الاضطراب .

والمذهب لا يؤخذ من قول المفكر عند حيرته ولا من عبارة تلقف عنه ، بل المذهب ما يستقر عليه الشخص ، ويتجه إليه ، ويدعو الناس لاعتناقه ، ولم يدع أحد أن ذلك كان جزءاً من مذهبه وآرائه ، دعا الناس إليه ، بل إن منتحلى نحلته كانوا جميعاً يؤمنون بقوة مسيطرة على العالم ، ولم يمنعهم ذلك من أن يجمعوا بين عقيدتهم ومذهبه ، وإذا كان من متبعيه من نحله أوصاف الإله ، فذلك دليل يظن أنه ليس من دعايته إنكار الإله .

وأما إنكار النفس ، فقد ورد أيضا منحولا له ، ولكن ذكرته أكثر المصادر ، فهو أقوى سنداً من الإنكار الأول ، وأصدق نسبة ، ولكنه لا يتلاءم مع جملة أفكارهم ، وخلاصة ما ينسب إليهم ، ومما ينسب إليهم بلا ريب فى نسبته (التناسخ) والتناسخ لا يفهم إلا إذا كان للنفس كون قائم مستقل عن الجسم ، وليست خاصة له ، ولا ظاهرة من ظواهره . وبيان ذلك أن التناسخ يقتضى أن يكون شيئا متنقلا من جسم إلى جسم ، حتى يصعد فى مدارج الرقى أو يكفّر عن الخطايا بالنزول فى جسم أدنى ، ونحو ذلك وغير جائز أن يكون ذلك الشىء جسيماً ، لأنه لا معنى لانتقال جسم حى فى جسم آخر حى ، إلا إذا كان أحدهما خاصة ليست فى الأول ، وهى غير الحياة لأن كليهما فيه الحياة ، فلابدّ أن يكون ذلك معنى نفسيًّا .

ولهذا رأى بعضهم لكى تتلاءم فكرة التناسخ مع فكرة إنكار النفس ، أن

يقول : إن النفس غير موجودة ، ولكن هناك رغبة هى التى تنتقل من جسم إلى جسم ، ومن حى إلى حى ، تبعاً لقانون التناسخ ، وهذا فرض لا يمنع الاعتراض الوارد ، والتناقض الواقع ، لأن هذه الرغبة هى خاصة للجسم ، أو هى شىء غير الجسم ؟ فإن كانت غير الجسم ، فهى النفس سواء أسموها رغبة أو نفساً ، وبذلك يعود هذا على أصلهم بالنقض ، ويؤدى كلامهم إلى نقيض ما يدعون ، ويهدمون بيد ما يبنونه باليد الأخرى .

وإن كانت الرغبة خاصة من خواص الجسم ، ولا زمة من لوازمه ، فكيف تنتقل إلى جسم آخر ، وهى خاصة من خواص غيره ؟ ذلك يقتضى أن ينتقل الجسم مع رغبته الخاصة به ، لأنه من غير المعقول أن يوجد ملازم من غير ملزومه والخاصة من المختص بها .

لهذا كله نقول : إنكار بعضهم للنفس يتنافى مع اعتقادهم التناسخ الثابتة نسبته لهم ، والتوفيق بينهما يؤدى إلى أمور لا يقبلها العقل ، أو يؤدى إلى هدم أحد الأمرين : اعتقاد التناسخ أو إنكار النفس .

المذهب البوذى العملى :

الجزء الخصب فى البوذية هو مذهبها فى الأخلاق وإصلاح المجتمع وتخفيف ما فيه من شقاء ، فلقد لاحظ بوذا أن هذه الحياة تحوطها الأكدار والآلام من كل جانب ، بل إنها آلام تتبعها أحزان تشقق المرائر ، وتجعل كل إنسان فى نغص دائم وبلبال مستمر ، ولاحظ أن منشأ تلك الآلام التى طم سيلها فى هذه الحياة – اللذات والأمانى التى تبعثها الرغبات التى استحوذت عليها الملاذ والشهوات .

فاللّذات فى عقباها آلام ، وإن تطلعت النفس إليها وتمنتها كان فى الحرمان

منها آلام أيضاً . فلولا انبعاث اللذات ما كانت الآلام ، ولولا استهواء الأمانى التى تبعثها اللذات ما كانت آلام الحرمان ، لذلك كان لابد لمحو الآلام القضاء على أصلها ، والنبعة التى نبعت فيها ، وذلك يكون بالقضاء على اللذات وآمالها وأمانيها ، ولا يتم هذا إلا إذا راض الشخص إرادته على هجر اللذات جملة ، ومجاهدتها ليكون للإنسان القدرة التامة ، فلا يناله الحرمان من لذة بمضض الألم .

لهذا كله كان العماد الذى أقام عليه بوذا مذهبه فى السلوك القويم للإنسان أن يجاهد الشخص الشهوات ، ويروض إرادته والعود أخضر على اللذات والصبر على الحرمان منها ، فلا يكون ألم .

ولكى يصل الشخص فى يسر ومن غير عنف ، إلى تلك الغاية السامية ، وهى رياضة الإرادة لكى يتحمل الحرمان من غير ألم يصحبه ، يجب عليه سلوك الجادة المستقيمة والممر الوسط ، وذلك بأن يكون فى حياته كلها مقيدا نفسه بثمانية أمور فى كل شأن من شئون الحياة ، وتلك الثمانية هى :

(ا) الاتجاه الصحيح المستقيم ، بأن يتجه إلى أى أمر يريده اتجاهاً صحيحاً مستقيماً خالياً من كل سلطان للشهوة واللذة ، وما تبعته من أمانٍ وأحلام فاسدة ، فيجتهد عند الاتجاه إلى أى أمر فى أن يخلص إرادته من شائبة اللذات أو الشهوات ، وما يتصل بها من آمال تبعتها وأحلام تثيرها ، وفى الجملة ينقى نفسه من كل ما يتصل باللذة عند الاتجاه .

(ب) الإشراق الصحيح المستقيم ، وذلك أن الإنسان عند الاتجاه إلى أمر من الأمور اتجاهاً مستقيما خالياً من شوائب اللذات ، تعتريه نورانية تجعله يستطيع الوصول إلى حقائق الأشياء من غير أن يرنق نظره أى درن من أدران اللذة ، ولا يرين على عقله ما تثيره من أهواء .

(جـ) التفكير الصحيح المستقيم : وذلك أن العقل إن خلا من شوائب اللذة ، ونال الإشراق الصحيح كان تفكيره مستقيماً ، وكانت العمليات العقلية التى يقوم بها فى التفكير فى هذا الأمر مستقيمة لا تؤثر فيها نزعة هوى ، ولاجموح شهوة ، ولا اضطراب الأمانى والأحلام فى قلبه .

(د) ولا شك أن هذه المستقيمات الثلاثة السابقة : الاتجاه المستقيم والإشراق المستقيم ، والتفكير المستقيم يترتب عليها أمر رابع مستقيم ، وهو اطمئنان العقل والقلب إلى فكرة خاصة من بين ما يعرض لها من الأفكار والآراء والأنظار . وذلك هو الإيمان المستقيم ، أو الاعتقاد المستقيم الذى يصحبه ارتياح واطمئنان ، وبه يصير القلب فى روح وريحان من النعيم المعنوى .

(هـ) والذى يتمم الأمور الأربعة السابقة لفظ مستقيم ، وذلك بأن يكون نطق الإنسان بما انتهى إليه من فكره مطابقاً تمام المطابقة لاعتقاده ، ولما ارتاح إليه ، وعمر قلبه بالسرور به .

(و) السلوك المستقيم : وذلك هو الأمر السادس الذى لابد منه لسلوك الممر الوسط ، والسلوك المستقيم ما يكون مطابقاً لكل ما قام بالقلب من اعتقاد ، فيكون العمل على وفق العلم ، فلا مجافاة بينهما ، ولا مناقضة ، بل يكون كل منهما مؤكداً للآخر أو متمماً له .

(ز) الحياة الصحيحة : بأن يكون قوامها هجر اللذات هجراً تامًّا ، وأن يكون كل ما يجرى فيها متطابقاً مع السلوك القويم ، والعلم الصحيح ، ولا يشذ فيها شىء عن مقتضى هذا السلوك ، وأحكامه .

(ح) الجهد الصحيح : وذلك بأن تكون كل الجهود التى يبذلها الإنسان فى سبيل أن تكون الحياة مستقيمة سائرة على مقتضى السلوك ، والعلم والحق ، ومنع كل ما له صلة باللذات ، أو من شأنه أن يثير دواعيها ، ويحفز إليها .

هذه هى الأمور التى لو تمت على وجه مستقيم سار الشخص على الجادة ، وسلك الممر الوسط الذى يوصل إلى حياة سعيدة ، خالية من الآلام خلوها من دواعيها ، وهى الشهوات واللذات .

وإذا كان فى هذا الكلام شيء من الخير ، فهو فى مقاربته فى بعض نواحيه إلى ما يرمى إليه الحديث الشريف : « لا يؤمن أحدكم ، حتى يحب الشيء لا يحبه إلا لله » بأن يحب الشيء خالياً فى محبته له من كل شوائب الأغراض والأهواء قاصداً بمحبته وجه الله سبحانه وتعالى ، وذلك فى جملته يقرب منه فى الاتجاه الصحيح ، وإن كان معنى الحديث أسمى ، وأدق ، وأحكم .

وإذا كان ما تقدم هو لب الفضائل البوذية ، وما تدعو إليه من مجاهدة اللذات وبواعثها ورياضة الإرادة على تركها جملة ، فالرذائل ترجع إلى أصول ثلاثة.. وهى :

(ا) الاستسلام للملاذ : فإنه يجعل الحياة كلها فى ألم مستمر ، وفوق ذلك يعكس نظر الأشياء فى العقل والقلب ، فكل نظر يكون مغشيًّا بغشاوة من الشهوات والرغبات والأحلام الفاسدة ، والأمانى الكاذبة التى تبعث إليها اللذات الملحّة .

(ب) سوء النيّة فى طلب الأشياء : وذلك من استمكان اللذات فى النفس ، فإن الغرض الفاسد يتحكم فى طلب الإنسان للأشياء ، فلا يصير واضح المقصد بين الغاية لما له من مآرب يطلبها ويسترها ، وغايات تدفعه ولا يناالها ، ويدفعه إلى الكتمان رغبة نيلها ، وتوقع الاعتراك بينه وبين غيره فيها ، لذلك يسود سوء النية ، فهو إذن وليد استمكان اللذة فى القلب ، واستيلائها عليه ، وهو أيضاً أصل لكثير من الرذائل كالغش والكذب والنميمة وغير ذلك .

(جـ) الغباء وعدم إدراك الأمور على الوجه الصحيح : وفى أكثر الأحيان يكون ذلك منشؤه من رين الشهوات على النفس ، وسدها سبيل الإدراك

الصحيح ، فيصبح العقل لا يرى إلا ما تعكسه عليه ، ويمتنع على النفس الإشراق الذى ينشأ من التجرد من الملاذ ، والإلهام الذى يكون من الشهوات .

وقد ذكر فى كتب البوذية عشر رذائل ، جاء النهى عنها فى تلك الكتب على صورة وصايا ، وهى لو أخذ الشخص نفسه بها ، ورعاها حق رعايتها ، كان فى الأخذ بها استيلاء تام على الإرادة ، وتلك الوصايا .

(ا) لا تقتل أحداً ، ولا تقض على حياة حى .

(ب) لا تأخذ ما لا يقدم إليك ، فلا تسرق ولا تغتصب .

(جـ) لا تكذب ، ولا تقل قولا غير صحيح .

(د) لا تشرب خمراً ، ولا تتناول مسكراً ما .

(هـ) لا تزن ، ولا تأت أى أمر يتصل بالحياة التناسلية إذا كان محرّماً .

(و) لا تأكل طعاماً نضج فى غير أوانه .

(ز) لا تتخذ طيباً ، ولا تكلل رأسك بالزهر .

(ح) لا ترقص ، ولا تحضر مرقصاً ولا حفل غناء .

(ط) لا تقتن فراشاً وثيراً ، فلا تقتن أرائك فخمة ، ولا وسائد ولا حشايا وثيرة .

(ى) لا تأخذ ذهباً ولا فضة .

هذه هى الوصايا العشر التى يأخذ بها البوذى ليروض إرادته على ترك الملاذ ، والعكوف على المجاهدة وتهذيب الذات ، وتخفيف ويلات الحياة ، ومنها ترى أنهم يحثون على عدم أخذ الذهب والفضة ، كأنهما الأمر الذى تضل عنده الأفهام ، وتستيقظ حوله المطامع وكأنهما مدخر اللذة ، لاستعانة الناس بهما فى اجتراع اللذات ، واجترار الشهوات ، ولهذا النهى عن اقتناء الذهب والفضة قال العلماء : إنّ البوذية تحث على عدم الملك ، وتطالب البوذى

ألا يملك شيئاً ولا يقتنى شيئاً ، فهو يطلب طعامه يوماً بعد يوم ، ولا يدخر من يومه إلى غده .

ولقد كان هذا سبباً فى أن ينقسم البوذيون إلى قسمين :

أحدهما : البوذيون الدينيون الذى أخذوا أنفسهم بالتعاليم السابقة لا يحيدون عنها قيد أنملة ، وقيدوا أنفسهم بأنواع من الأطعمة لا يعدونها ، ويحرمون كل شىء غيرها ، ولا يلبسون إلا خشن الثياب ولا يرضون إلا جشب العيش ، لما راضوا أنفسهم عليه ، من ترك كل لذات الحياة وراءهم ظهريًّا ، ليستولوا عليها ويمتنعواعن آلامها .

ثانيهما : البوذيون المدنيون : وأولئك هم البوذيون الذين لم يطيقوا تطبيق المنهاج الشاق الذى أخذ به الدينيون منهم ، فاختاروا لأنفسهم طريقاً وسطاً ليس فيه إفراط غير البوذيين فى اللذات ، ولا شدة البوذيين الدينيين بل هو وسط بين النجدين ، أخذوا الأخلاق البوذية من تواضع وإيثار ، وحب للفداء وصدق وأمانة وحلم وعلم وصفاء ، ونالوا بعض الملاذ التى لا تعقب ألماً ، ولم يندفعوا فيها حتى يصابوا بألم عند الحرمان[١٤] ، وفى الوقت الذى سلكوا فيه هذا المسلك آووا إخوانهم الدينيين ، وأعانوهم على طريقتهم ، وأمدوهم بالأسباب التى تعاونهم على الإيغال فى مذاهبهم ، معتقدين أن من آمن ببوذا ، وتحلى بما يدعو إليه من أخلاق وآوى رجال دينه ، وأعانهم ثم تناول بعد ذلك بعض متع هذه الحياة ، فإنه يصل إلى طريق الخلاص ، ويرق إلى مرتقى السعادة والنجاة .

ما بين البرهمة والبوذية : يتبين مما مضى أن البوذية لم تعن بالبحث عما وراء

---

(١٤) ولقد اكتفى المدنيون بأن يطيعوا من النواهى العشرة المتقدمة الخمسة الأولى فقط وهى النواهى عن السكر والزنا والقتل ، والسرقة ، والكذب ، أما الخمسة النواهى الأخرى فهى خاصة بالمتدينين .

الطبيعة ، فلم تتجه إلى الدراسات التى تتصل بالألوهية ، وحدود سلطانها بل كل عنايتها كان لإصلاح الإنسانية بإنقاذها من الآلام ، وإبعادها عن ويلاتها ، برياضة الإنسان على هجر اللذات ، وتربية الإرادة على إهمالها وعدم العناية بها على ما تقدم ، وهذا كما ترى فارق بين البوذية والبرهمية ، فإن البرهمية كانت فيها العناية الكبرى بالجانب الإلهى . والتقرب للمعبود ، والفناء فيه ، وكل ما فيها من نسك فهو لهذه الغاية ، فإذا اتحدت البوذية والبرهمية فى النسك والزهد فى الملاذ وهجرها ، فالغاية مختلفة ، فغاية البرهمى الزلفى والتقرب للمعبود وإعطاؤه ما يستحق من عبادة ، أما البوذى فغايته من النسك رياضة الإرادة على الحرمان ، وتعويدها السيطرة على الرغبة فى الملاذ ، لكيلا تشقى بطلبها ويحز فيها الحرمان .

ولقد كان أبلغ ما أحدثته البوذية من أثر فى المجتمع الإنسانى ، إلغاؤها نظام الطبقات واعتبارها بنى الإنسان سواسية كأسنان المشط يتفاضلون فى المواهب ، ويتساوون فى الحقوق ، لا فرق بين شخص وشخص بنسبه أو طبقته ، ولكن الفرق بينهما بالموهبة والقدرة والعمل . محا بوذا إذن الفرق بين الطبقات وتلاقى الناس فى مذهبه عند الوحدة الإنسانية ، من غير اعتبار للاختلاف العنصرى ولا فضل لأحد إلا بالمعرفة وسيطرة الإرادة الإنسانية سيطرة تامة ، لا تقوى اللذات على الغلب عليها .

كتب البوذية : كتب البوذيين ليست منزلة ، ولا يدعون ذلك هم ، بل هم لا ينسبون ما فيها إلى جانب إلهى ، بل هى عبارات منسوبة إلى بوذا أو حكاية لأفعاله أو نقل لما أقره من أعمال أتباعه ونصوص تلك الكتب مختلفة بسبب انقسام البوذيين فى نحلهم ، فبوذيو الشمال لديهم نصوص ليست عند أهل الجنوب ، وأكثرها قد اشتمل على أوهام كثيرة ، تتعلق ببوذا ، أو حدث الإله

فيه ، ونصوص بوذيي الجنوب هى الأصح نسباً ، والأصدق قولا والأبعد عن الأوهام ، وهى التى نعتمد على بيانها .

تنقسم **تلك الكتب إلى ثلاثة أنواع :**

أولها : يشتمل على مجموعة قوانين البوذية ومسالكها ، وقد جمعت تلك المجموعة سنة ٣٥٠ ق . م ، وهى تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

قسم يحوى العقوبة المفروضة على ما يقع من البوذى من ذنوب ومخالفات ، ويحوى نحو سبع وعشرين ومائة فقرة .

وقسم يحوى التعاليم التى يجب اتباعها لتربية النفس على ما يدعو إليه البوذيون ، وفيه قرارات المجالس البوذية التى انعقدت فيما بين سنتى ٣٨٠ و ٣٢٠ ق . م وفيه أيضاً بيان بما يتبع لقبول طالبى البوذية واجتماعات البوذية ، وتفاصيل حياة البوذى .

وقسم فيه خلاصة القسمين الماضيين ، لكونه فى متناول الجماهير ، وفيه خلاصة للسلوك القويم الذى يدعو إليه البوذيون .

ثانيها : مجموعة الخطب التى ألقاها بوذا ، ووصاياه ، وهى مجموعات مختلفة تضم كل مجموعة طائفة من المسائل المتقاربة فى الفكر ، وفى هذه الخطب وصايا بوذا ، ودعواته التى وجهها إلى الناس وكثير من الأحكام التى تتصل بالبوذية مما يجب على البوذية سلوكه ، وكل هذه الخطب والوصايا تنسب لبوذا .

ثالثها : الكتاب الذى يحوى بيان أصل المذهب ، والفكرة التى نبع منها ، وبعبارة أدق فيه الفلسفة التى قامت عليها الديانة البوذية ، والأصل الذى استنبطت منه تعاليمها ، وفيه بحوث تدور حول الخير والشر ، واللذة والألم ، وفى الجملة نرى فى كتب البوذية كلاماً خصباً قيماً فيه بيان للأخلاق والسلوك القويم ، وقد ترجمت إلى اللغات الحية وكانت مادة لدراسات فلسفية خلقية .

خلاصة القول عن
النفس ، خلودها ، وتناسخ الأرواح عند البراهمة

النفس فى نظر البراهمة[١٥] : جوهر خالد صاف عالم مدرك تام العلم والإدراك ما دام منفصلا عن الجسد ، فإذا فاض على الجسد واتصل به اعتكر صفاؤه ، ونقص علمه ، ولذا يقول باسديو كما نقل البيرونى « إذا تجردت النفس عن المادة كانت عالمة ، فإذا تلبست كانت بكدورتها جاهلة ، وظنت أنها الفاعلة ، وأن أعمال الدنيا معدة لأجلها . فتمسكت بها ، وانطبعت المحسوسات فيها ، فإذا فارقت البدن كانت آثار المحسوسات فيها باقية ، فلم تنفصل عنها بالتمام ، وحنت إليها وعادت نحوها .

وهذه النظرية التى تقرر أن النفس عالمة قبل اتصالها بالجسم تقارب نَظرية أفلاطون فى المثل العليا فى النفس ، وربما كانت أصلا لها ، فالعلم لا يقع فى قبضة أحد ، بل هو يتنقل فى البلاد والأمم تنقّل الرياح والأمطار فيها ، لا تقف دونه الحاجزات ، ولا تسد الطريق عليه سدود من حدود وحصون .

والنفس عندهم خالدة باقية لا يعروها الفناء . ولا يتطرق إليها البلى ، ولقد صرحت بذلك كتبهم ، وهذا ما نقله البيرونى يشهد بما نقول : قال باسديو لأرجن يحرضه على القتال . وهما بين الصفين : إن كنت بالقضاء السابق مؤمناً فاعلم أنهم ليسوا ، ولا نحن بموتى ولا ذاهبين ذهاباً لا رجوع معه ، فإن الأرواح غير مائتة ولا متغيرة ، وإنما تتردد فى الأبدان على تغاير الإنسان من الطفولة إلى

(١٥) الشيخ محمد أبو زهرة – مقارنات الأديان – الأديان القديمة .

الشباب والكهولة ، ثم الشيخوخة التى عقباها موت البدن ، ثم العود له . وقال له أيضاً : «كيف يذكر الموت والقتل من عرف أن النفس أبدية الوجود لا عن ولادة ، ولا إلى تلف وعدم ، بل هى ثابتة قائمة ، لا سيف يقطعها ، ولا نار تحرقها ، ولا ماء يغصّها ، ولا ريح تُوبسها ، لكنها تنتقل من بدنها نحو آخر كما يستبدل البدن اللباس إذا خلق ، فما عملك لنفس لا تبيد » .

ومن هذا النص يفهم أن عقيدتهم فى النفس أنها لا تبيد ، وأنها تنتقل من جسم إلى جسم ، ومن ذلك جاء اعتقادهم فى تناسخ الأرواح ، وهو الطابع الذى امتازت به الديانة البرهمية ، حتى لقد قال فى ذلك البيرونى : «كما أن الشهادة بكلمة الإخلاص شعار إيمان المسلمين ، والتثليث علامة النصرانية ، والأسبات علامة اليهودية ، كذلك فإن التناسخ علم النحلة الهندية من لم ينتحله لم يك منها » .

وقد قامت عقيدة التناسخ عندهم على دعائم ثلاث :

الدعامة الأولى : اعتقادهم خلود الأرواح .

الدعامة الثانية : اعتقادهم أن الروح بعد مزاولة الجسم تكون فى حنان دافع إلى الأجسام ، لما انطبع فيها من المحسوسات ، وأثر فيها من الماديات ، وإن كان ذلك التأثير قد عكر صفاءها ، وكدر نقاءها .

الدعامة الثالثة : أن النفس فى بقائها فى الجسم تحيط علماً بالجزئيات وإن كان علمها بالصورة الكلية ثابتاً لها ، وهى فى تنقلها من جسم إلى جسم تستفيد من كل جسم علماً جديداً بجزئيات لم تكن تعلمها ، فليس من المعقول أن تحيط بكل الجزئيات علماً ببقائها أمداً قصيراً فى جسم واحد ، ولذلك « احتاجت إلى تتبع الجزئيات واستقراء الممكنات ، وهى وإن كانت متناهية عددها كثير والإتيان على الكثرة وإحصاؤها علماً يحتاج إلى فسحة فى الأمد ، ولذلك

لا يحصل ذلك العلم للنفس إلا بمشاهدة الأشخاص والأنواع ، وما يتناولها من الأفعال والأحوال ، حتى يحصل لها فى كل واحد تجربة ، وتستفيد بها جديداً فى المعرفة »[١٦] .

لهذا كله كانت الأرواح تنتقل فى الأجسام ، وتنتقل متدرجة فى الرقى من جسم إلى جسم حتى تصل إلى الكمال المطلق ، وتكون فى صف الروحانيات المتجردة : وهى الملائكة وتكون غير محجوبة عن التصرف فى السموات والأرض ، وتدبير الكون .

وإذا كانت الروح قد ارتكبت خطيئة فى أثناء حلولها فى أحد الأجسام أركست فى حيوان دون الذى كانت فيه، لتكفر عن خطيئاتها، وتطهر من سيئاتها، ثم تسير قدمًا إلى الرقى، لا يعوقها عن بلوغ أوجه إلا خطايا تتأثم بها ثم تتطهر. وتستمر كذلك حتى تصل إلى الملكوت الأعلى مع الملائكة فى أعلى عليين، وتتجرد عن الغلاف الجسمى، وقد يكون تدرجها إلى أدنى، فتهوى إلى جهنم على حسب الأقوال عندهم.

ولعقيدة التناسخ التى استولت على الفكر الهندى وأثرت فيه – كانوا يعتقدون أن الروح الواحدة تحل فى عدة من الأجسام ، وأن الشخص ربّما تكون روحه قد حلت فى مئات الأجسام قبله ، ويحكى البيرونى عن ملك من ملوكهم ، « أنه رسم لقومه أن يحرقوا جثته بعد موته فى موضع لم يحرق فيه ميت قط ، وأنهم طلبوا موضعاً كذلك ، فأعياهم ، حتى وجدوا صخرة من البحر نائتة ، فظنوا أنهم ظفروا بالبغية ، فقال لهم باسديو : إن هذا الملك أحرق على هذه الصخرة مرات كثيرة فافعلوا ما تريدون ، فإنما قصد إعلامكم وقد قضيت حاجته » .

(١٦) ما للهند من مقولة للبيرونى .

الحياة الآخرة :

من عادات الهنود الدينية أن أجسام أكابرهم تحرق بعد الموت ، وذلك لأن النار فى اشتعالها تعلو شعلتها إلى أعلى بخط عمودى على أفق الأرض ، والعمود أقرب المستقيمات بين السطوح والخطوط ، ولذا تتجه الروح بهذا الاحتراق إلى أعلى ، سائرة باتجاه عمودى ، فتصعد إلى السماء فى الملكوت الأعلى فى أقرب زمن . هذا سبب من أسباب حرق أجسام كبرائهم بعد موتهم . وهناك سبب آخر ، هو أن فى الاحتراق تخليصاً للروح من غلاف الجسم تخليصاً تامًّا ، وذلك أن فى الجسم نقطة بها يكون الإنسان ، وهى متلبسة بالجسم متصلة به ، فلا تخلص منه إلا باحتراق أمشاجه وصيرورتها ذرات صغيرة بالاحتراق ، فعندئذ تتخلص تلك النقطة وهى معنى الإنسان ، وبتخلصها تتخلص الروح من الجسم ، وتعلو عنه لتتصل بجسم آخر أو لتسمو إلى درجة الملائكة ، إن كانت قد وصلت إلى درجة الخلاص .

وإذا تخلصت الروح من الجسم كان أمامها ثلاثة عوالم : أولها العالم الأعلى ، وهو عالم الملائكة ، تصعد إليه الروح إن كانت بعملها تستأهل الصعود إليه ، والخلاص من الجسم ، والسمو إلى الملكوت الأعلى ، والعالم الثانى من عالم الناس ، وهو عالمنا الحاضر معشر الآدميين ، والنفس تعود إليه بالحلول فى جسم إنسانى آخر لتكتسب عمل خير ، ولتجتنب عمل شر ، إذا كانت أعمالها فى الجسم الأول لا ترفعها إلى مراتب التقديس فى أعلى عليين ، ولا تنزل بها إلى أسفل سافلين فى العالم الثالث وهو عالم جهنم، وهذا العالم يكون لمرتكبى الخطايا الواقعين فى الذنوب، وليس هناك جهنم واحدة، بل لكل أصحاب ذنب جهنم خاصة بهم، فالمدعون على غيرهم حقوقًا كاذبة وشهود الزور لهم جهنم

خاصة بهم ، وسافك الدم وغاصب حقوق الناس والمغير عليهم وقاتل البقر لهم جهنم خاصة بهم ، وقاتل البرهمى وسارق الذهب لهم جهنم خاصة ، والذى يرد قول أستاذه ولا يرضاه ، ويستخف بالناس ويستهين بالكتب المقدسة أو يكتسب بها فى الأسواق لهم جهنم أيضاً خاصة ، وهكذا لكل صنف من الآثمين جهنم بمقدار يتناسب مع ذنبهم ، ومقدار ما فيهم من فسوق على الدين وخروج من حظيرته .

ثم هل جهنم دائمة وكذلك الجنة ؟ منهم من يرى أن الجنة نزلها دائم ، وأن الجحيم كذلك ، وأنها للجنة أبداً أو الجحيم أبداً ، على مقدار ما قدم الشخص من عمل ، فإن كان العمل فى الحياة لا يرفع إلى الجنة ولا ينزل إلى الجحيم أعيدت الروح إلى جسم آخر ، لتعمل ما يعليها أو يرديها .

ومنهم من يرى أن طريق الاكتساب هى الإنسانية وحدها ، وأن التردد فيها مكافأة قاصرة عن درجة الثواب والعقاب الأخروى ، أما الجنة فإنها فى علوها تكون للنعيم الذى يستحقه من قدم عملا حسناً ، ويكون البقاء فيها إلى أمد محدود ، وإذا كان العمل الإنسانى إثماً وخطيئة تردت روح الشخص فى الحيوان والنبات وعقاباً لها على ما اجترحت من سيئات وقدمت من خطايا ، وبقيت فى ذلك أبداً حتى تتطهر مما اجترحت ، وليست جهنم إلا هذا التردى عند هؤلاء ، فالجنة والجحيم ليستا أبديتين عند هؤلاء ، بل هما مؤقتتان بهذا التأقيت ، بعدها تصعد الروح درجة إلى العالم العلوى أو تنزل إلى المرتبة الإنسانية .

وكلا الرأيين يسير على مناهج تناسخ الأرواح ، وإن اختلفت أنظارهم فيه ، ومهما يكن من خلاف فى هذا المقام فالمتفق عليه أن البعث فى العالم الأخروى إنما هو للأرواح لا للأجساد . فالروح إما فى روح وريحان ، وإما فى شقوة وجحيم على نحو ما بينا . « انتهى كلام الشيخ أبو زهرة » .

الروح عند الإغريق والرومان [١٧]

إذا انتقلنا إلى الإغريق وجدناهم فى أزهى أيام نهضتهم الفلسفية العظمى يكثرون من الحديث عن الأرواح ويصفونها بالآلهة . ومن هنا كثرت أساطيرهم عن آلهة الحكمة ، وآلهة الجمال ، وآلهة الحب والخمر والصيد والحرب ...

ونحدث أكبر فلاسفتهم وشعرائهم ومؤرخيهم عن الأرواح كحقيقة واقعة لا تثير شبهة . ومنهم بوجه خاص سقراط وأرسطوطاليس وأفلاطون وسوفوكليس وهوميروس ويوريبيديز وفرجيل وبلوتارك وهيرودوت وبطليموس وهوراس ويوسفوس وماكزيموس أوف تير وتاليس [١٨] ... وغيرهم .

وكانت نحلتا الأورفية والفيثاغورية تؤمنان بخلود النفس ، وتعتقدان أنها جوهر إلهى نزل وسكن فى الجسد ، أو بالأدق سجن فيه ، ولابد أن تقضى النفس مدة العقوبة قبل أن تغادر الجسد [١٩] .

وكان سقراط يؤمن بخلود النفس ، وعندما حكم عليه بالموت صرح لاثنين من أتباعه هما سيمياس (Simias) وسيبس (Cèbes) قائلا : « نعم إنى أعترف أنه لولا اعتقادى أنى سوف أذهب أولا صوب آلهة أخرى حليمة ورحيمة ، ثم بعد ذلك نحو رجال ماتوا هم أفضل من رجال هذه الحياة الدنيا ، لكان من الخطأ الفاحش ألا تثور نفسى ضد الموت ... » . وهذه الواقعة رواها أفلاطون

---

(١٧) عن كتاب الإنسان روح لا جسد للدكتور رءوف عبيد .

(١٨) كان تاليس يقول إن العالم مشحون بالأرواح والشياطين ، وأنهم يتجولون بين أيدينا ومن خلفنا وأنهم يرونا برغم أننا لا نراهم ، وتاليس هذا من فلاسفة القرن السابع قبل الميلاد .

(١٩) راجع عن النحلة الأورفية كتاب « فى عالم الفلسفة » للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى .

عن سقراط فى محاورة فيدون .

كما يروى أفلاطون عن سقراط أن أستاذه كان يعتقد أن الفيلسوف الحق هو ذلك الذى لا يشغله عن التفكير فى الموت شاغل ، إذ أن الموت هو وسيلة تحرير الفكر ، وأن النفس لن تستطيع أن تدرك شيئاً على حقيقته إلا إذا قطعت كل صلة تصلها بالجسد ، فهو عائقها عن المعرفة الحقة ، وهو عاجز عن تفهم معانى العدل والخير والجمال « إذ طالما بقيت لنا أجسادنا . وظلت نفوسنا مختلطة شديد اختلاط بذلك الشىء الردىء ، فإننا ندرك موضوع رغبتنا إدراكاً كافياً ، وإن هذا الموضوع لَهُوَ الحقيقة ... »(٢٠)

ولذا كان سقراط يؤمن أن الفيلسوف الحق هو ذلك الذى ينبغى أن يطلب الموت ، ويعتقد العامة أن اتصال النفس بالجسد حياة وانفصالها عنه موت ، ولذا يخافون الموت مع أن حياتهم فى حقيقتها موت . وموت الفلاسفة فى حقيقته حياة ، لأن الإنسان العامى يتعلق بمطالب الجسد ويغفل مطالب النفس وهما العلم وطلب المعرفة . فهو ذو نفس ميتة ولو كان على قيد الحياة ، أما الفيلسوف فيعد نفسه للحياة عن طريق الموت وذلك بأن يعمل على استقلال النفس عن البدن ومطالبه بالزهد فيها وبالبحث عن المعرفة . لا عن طريق الحواس الخداعة ، بل عن طريق العقل والفكر ، والبحث عن الوجود الحقيق فى الحق والخير والجمال والشكل والصحة .

كما كان سقراط كثيراً ما يبرهن على خلود النفس بعد الموت ، وعندما صدر الحكم الظالم بإعدامه قال « إنى لمغتبط بهذا الموت كل الاغتباط لأن الإله (يقصد روحه المرشدة التى كان يصفها بهذا الوصف على طريقة الإغريق) لم يعطنى إشارة سيئة عندما برحت دارى ، ولا عندما اعتليت هذه المنصة كما

(٢٠) Phedon 69,6

أتولى الدفاع عن قضيتى ، ومن عادة الإله أن يعطينى هذه الإشارة السيئة كلما هددنى شر ما » . وأخذ سقراط قرب احتضاره يبين لأتباعه كيف أن للأشياء عوداً على بدء ، فالحياة يتبعها الموت والموت تتبعه الحياة .

وكان سقراط يعتقد أيضاً أن لكل روح روحاً تحفظها وتلهمها ما قد ينفعها فى دنياها ، وعليه فمن الجائز أن يقوم الأحياء بمخاطبة الأرواح فى أثناء وجودهم فى هذا العالم . كما كان يؤكد أن روحاً كانت تخاطبه وترشده فى أمور دنياه منذ كان طفلاً صغيراً . وكان يسمع صوتها ويأتمر بأمرها حتى بعد أن أصبح رجلاً كبيراً[٢١] . وكان سقراط يعتقد أيضاً بأن إلهاً خيراً يعين الناس عندما يكونون فى شك من أمر مستقبلهم ، ولذا كان ينصح أصدقاءه باستشارة الوحى ولا سيما وحى « دلفى » عندما كان معبدها مع معبد « دودونا » من أهم مراكز التنبؤ عند الإغريق ، بفضل تفوهات الغيبوبة التى كانت تصدر عن كاهنات المعبدين[٢٢] .

وتولى أفلاطون بعد سقراط إضافة الأدلة الفلسفية الكثيرة على خلود النفس ، مثل برهان الحياة والحركة ، وبرهان الضدين ، وبرهان التذكر ، والبساطة والتركيب ، والبرهان الخلقى ، بما يضيق المقام عن ذكره ، ويكفى مثلاً أنه فى برهان الضدين يقول : « إن صلة الحياة بالموت لشديدة الشبه بتلك العلاقة التى توجد بين اليقظة والنوم . فكما أن المرء ينتقل من اليقظة إلى النوم ، ومن النوم إلى اليقظة ، كذلك ينتقل من الحياة إلى الموت ، ومن الموت إلى الحياة . والانتقال من أحد الضدين إلى الآخر أمر لا مفر منه ، إذ لو كان الانتقال فى اتجاه واحد فقط لاختل التوازن فى الطبيعة .

---

(٢١) راجع كتاب بونمير « الروح ومظاهرها خلال التاريخ » .

(٢٢) راجع كتاب « التنبؤ بالغيب قديماً وحديثاً » للأستاذ أحمد الشنتناوى ص ١٨ – ٢٢ .

ويترتب على ذلك أنه من الواجب أن تظل نفوس الموتى حية فى مكان خاص حتى تكون منبعاً ومبدأ لكل حياة جديدة. ولو لم يكن هناك انتقال من الموت إلى الحياة لانتهى كل ما فى الوجود إلى العدم، كما هى الحال تماماً لو استقر المرء فى نومه إلى ما لا نهاية »[٢٣].

ومحاورة فيدون - وهى من أمتع ما كتب أفلاطون - تمثل ليلة إعدام سقراط ومحورها خلود النفس. ويشير إليها أفلاطون فى الخطاب السابع قائلا: « فإذا كانت النفس إلهية خالدة فليس لها أصل نشأت عنه ولا تخضع للفساد، وإذا كانت النفس إلهية فعلينا أن نتعلق بها وحدها، لأن الفلسفة هى الشبه بالإله بقدر الطاقة الإنسانية. ولكن الإنسان ليس نفساً فقط، بل هو نفس وبدن، ولكل منهما مطالب، ولذلك يكون الإنسان ما دام على قيد الحياة ومتصلاً بالبدن حكيماً محبًّا للحكمة أى فيلسوفاً فقط، وإذا انفصل عن البدن عند الموت بلغت النفس الحكمة. فالموت للرجل الصالح مطية لحياة أفضل لأنها حياة النفس »[٢٤].

وكان أفلاطون يعتقد أيضاً أن الموت هو الوسيلة التى بها يتيسر للفيلسوف أن يفكر جيداً « وذلك لأن حياة الفيلسوف عند أفلاطون هى حياة متجهة دائما إلى تأمل الصور أو المثل، ولا يتيسر تأمل الصور تأملاً حقيقيًّا ما دامت النفس سجينة فى البدن، فلابد من الخلاص من البدن - أى لابد من الموت - حتى يكون فى مقدور المرء أن يتأمل الصور دون أن يشوه عليه هذا التأمل مشوه. فكأن الموت فى نظر أفلاطون إذاً جسر ومعبر ينتقل بنا من حياة النفس فى البدن

---

(٢٣) عن كتاب « فى النفس والعقل لفلاسفة الإغريق والإسلام » للدكتور محمود قاسم طبعة ٣ ص ٥٤.

(٢٤) عن كتاب « أفلاطون » للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى ص ٩٢.

إلى عالم الصور . فهو ابتداء أولى من أن يكون نهاية ، لأنه ابتداء للحياة الروحية الحقيقية ، حياة النفس ، حياة تأمل الصور ، هو على وجه العموم باب يفتح على الأبدية ... »[٢٥] .

كما كان أرسطو يتحدث عن العقل فيرى شيئاً خالداً مستقلاً عن الجسد . وكان يعتقد بالتالى بوجود عالم عقلى مغاير لعالم الحس والمادة « ولا يستطيع المرء القول بأن هذا العقل يفكر تارة ولا يفكر تارة أخرى . فمتى فارق الجسد فإنه يصير على غير ما كان عليه ... وهو وحده الذى لا يموت وهو الخالد .. فى حين أن العقل قابل للفساد »[٢٦] .

وهذا الرأى يوافق ما يقول به علم الروح الحديث من أنه وإن كانت الذاكرة تبقى بعد الموت ، إلا أنها لا تبقى فى كل جوانبها بل يلحقها نوع من التغيير يمس جوانبها السطحية ولا يمس الذكريات العميقة الدفينة فيها . أو بعبارة أخرى أن الذاكرة تبقى على حالها بقدر اتصالها ببقاء الشخصية بعد الموت ، ولا تبقى بقدر بعدها عن هذه الشخصية . لذلك كانت أحسن البينات على ثبوت بقاء الشخصية هو ما يجىء عرضاً ، أما امتحان الروح فى ذكرياتها الأرضية فقد ينجح أو لا ينجح بحسب قوة هذه الذكريات ، وعمق ما تركته من أثر فى العقل الباطن . وفى هذا الموضوع بحوث كثيرة أضاءت بعض جوانب ما قد يتبقى من الذاكرة بعد الموت ، وما قد يندثر منها ، بعد انسلاخ الجسد الأثيرى – وهو موطن العقل والذاكرة – عن الجسد المادى .

وقد تحدث فى هذا الشأن أيضاً إسكندر الأفروديسى – وهو من شراح أرسطو – فذهب إلى أن العقل الفعال « ليس من أجزاء النفس ولا من

---

(٢٥) عن « الموت والعبقرية » للدكتور عبد الرحمن بدوى طبعة ١٩٦٢ ص ١٥ ، ١٦ .

(٢٦) D Anima III 340-A-20-25.

وظائفها ، بل هو الإله الذى يتمثل فى نفوس البشر ، ويحل محلهم فى تفهم معانى الأمور وصنع المعقولات .. وهو غير قابل للفساد ، بل هو كائن إلهى خالد ، بل هو الذى يخلق العقل بصفة خاصة » .

وفعل مثله تمستويس (Themistuis) وهو أيضاً من شراح أرسطو ، الذى كان ينكر أن أرسطو كان يرى أن العقل الفعال هو الله الذى يفكر فى نفوس البشر ، لأن هذا العقل جزء منا ، أو هو حقيقتنا بعبارة أصح . كما كان يرى أن العقل المادى بدوره غير قابل للفساد ، وينسب إلى أرسطو أنه يتحدث فحسب عن فناء العقل المشترك الذى يكون به الإنسان مكوناً من نفس وجسد ، والذى هو محل الانفعالات كالغضب والشهوة(٢٧) .

وهذا الفهم الإغريقى لخلود الروح ، ولقيمه المعرفة فى سعادتها ، وللتمييز بين موت الجاهل وموت العالم ، ولوجود عالم عقلى مغاير لعالم المادة ، وصل إليه أحسن فلاسفة الإغريق بالفطرة السليمة وحدها ، أو بالأدق بالإلهام الراقى وحده ، ولم يفعل علم الروح الحديث أكثر من إثباته بأدلة تجريبية على ما سيلى فى عدة مواضع ، وبخاصة فى الموضع الذى خصصناه للكلام فى وصف عالم الروح ، وفى الثواب والعقاب .

وكان الرومان يعرفون الروح أيضاً ويتحدثون عنها ، لكن بطريقة لا تعد شيئاً إلى جانب عمق طريقة الإغريق . لأن حضارة الرومان كانت محض حرب واستعباد للشعوب . فسرعان ما تقوضت أركانها غير مخلفة وراءها سوى المآسى والدماء، على حين، خلفت حضارة الإغريق تراثاً روحيًّا فلسفيًّا، لا يـزال العالم يستضىء بنوره حتى الآن ، ولا يزال يبهر أبصار الفلاسفة والمفكرين برغم قدم العهد به .

---

(٢٧) Duhem-Système du monde + 1Vp 283.

ومع ذلك فها هو مثلا شيشرون Ciceron [٢٨] خطيب الرومان ومشرعهم المعروف يقول فى خطبة له « أليست غالبية السموات مملوءة بالبشر؟ هؤلاء الآلهة أنفسهم نشأوا هنا فى الأسافل ثم صعدوا إلى السماء » هذا وقد عالج شيشرون هذا الموضوع فى مؤلفه ، عن « طبيعة الآلهة[٢٩] » التى يقصد بها الأرواح على النحو الذى كان معروفاً عند الإغريق ، والذى يبدو أنه انتقل إليهم من مصر. ويسلم شيشرون فى مؤلفه هذا بأن الإيمان بالآلهة أو بالأرواح شائع لدى جميع الفلاسفة ، بل لدى الجهال والأميين أيضاً ، وأنه مغروس فى عقولنا أو بالأدق فطرى فينا .

الروح فى العقيدتين الموسوية والمسيحية

كان الدين الموسوى زمان ظهوره ثورة روحية . وصاحبها ينقل الرسالة عن الرب لقومه ، وهكذا رسمت تعاليم معينة محددة يتعين مراعاتها ، وهى تجعل من الرسالة حقيقة واقعة وليس هناك حلقة مفقودة هى الروحانيات والخيالات ، بل الرسالة دعوة واقعية ، ينقل داعيها الرسالة من الرب ويبلغها لقومه[٣٠] . والإنسان فى نظر اليهودية له إرادة حرة مختارة ، وهى ترفض كل وسيط بين الله والإنسان ، فأهم ما ورد فى الرسالة الموسوية هو فكرة التوحيد . والفرد فيها

---

(٢٨) نكتفى بإيجاز رأى شيشرون باعتباره كما سبق القول خطيب الرومان ومشرعهم .

(٢٩) On the Nature of the Gods.

(٣٠) يروى الأستاذ Beck أستاذ العلوم العبرية بجامعة برلين فى كتاب أديان العالم بعض العبارات المقدسة فى العبرية يفيد المعنى ومنها : « وهكذا خاطبنى الخلود قائلا : لا تقل إنى صغير السن لأداء الرسالة ، ستذهب إلى كل مكان أبعث بك إليه وستقول ما آمرك بقوله » .

وحدة فى ذاته وعليه أن يخدم ربه بكل قواه ، فخالق العالم هو أقوى ما فى الوجود وهو فوق كل العوالم . كذلك فإن الخلود حقيقة ثابتة ، وتعبر إحدى الصلوات الإسرائيلية القديمة عن ذلك فتقول ما معناه : « ربى إن الروح التى منحتنى إياها طاهرة نقية وهى نفخة منك فى نفسى »[٣١] .

وفى المثل الموسوية ما يفيد أن الرب يخلق الروح طاهرة ، ثم تتلوث بعد ذلك بالذنوب والمعاصى . أما حين نتحدث عن الروح فى العقيدة المسيحية فنقول : إن العقائد القديمة كانت محلية تتعدد فيها الآلهة الوثنية ، حتى حاول الأباطرة تحويلها إلى عبادة الدولة ممثلة فى الإمبراطور . لكن اليهودية كان لها مع المسيحية شأن آخر عند نشأتها فمن فئة الفريسيين (إحدى الفئات الانفصالية اليهودية) كان أكثر أتباع المسيح كبولس وغيره ، وفى فترات الظلم والاضطهاد كان أمل الفريسيين فى مجيء المسيح يتزايد .. فقد كانوا يرجون تدخلا من الرب يمحق السلطة الرومانية الغاشمة ، ويقيم ملكوت الله الذى تبعث فيه اليهودية من جديد ، تحت حكم ملك من نسل داود .. وجاءت المسيحية بنظرية جديدة سفهت كل قيم الأشياء الأرضية إذا قورنت بالأشياء السماوية .. وما لبثت هذه العقيدة الجديدة بعد ثلاثة قرون ، أن كسبت قانوناً أصدره الإمبراطور قسطنطين سنة ٣١٣ م ، أباح فيه لجميع رعايا الإمبراطورية – ومن بينهم المسيحيون – أن يعبدوا من يشاءون .. وما أن حل القرن الخامس حتى غَدَتْ الإمبراطورية مسيحية لحماً ودماً .. ولكن المطامع والأهواء جاءت مع الفوز ، فزعمت الدولة أن من حقها الإشراف على الكنيسة ، وأنها فى ذلك لا تطلب إلا ما كان

---

(٣١) كتاب مقدمة فى أصول النظم الاجتماعية والسياسية – د . أحمد عبد القادر الجمال . ص ١٠٩ هامش .

لها من حق على العبادة الوثنية [٣٢] ، وانتهى النزاع بانتصار الكنيسة. لكن ذلك لم يدم طويلا إذ انقسمت المسيحية إلى كنيستين : الشرقية ومركزها اليونان ، والغربية ومركزها روما .

وفى سنة ٣٢٥م عقد مؤتمر دينى انتهى إلى القول بتأليه يسوع ، ونال البابوات ما كانوا يحلمون به من سيطرة وأفانين الطمع والخصومات ، فكانت حركة الإصلاح الدينى إلى أن تألف دستور الكنيسة فى مؤتمر ترانت الدينى سنة ١٥٥٠م .

ويقول حبيب سعيد فى كتابه مقدمة عشرون قرنا .

« جاء الدين النصرانى بآمال واسعة ، فقد وعد الضعفاء والمحرومين والبائسين فى هذه الدنيا بجنة ذات نعيم أبدى ، حيث يتساوى الفقير والغنى ، فبينما كانت الحياة الدنيوية أهم ما يعنى به الإغريق والرومان ، صارت الحياة الآخرة الغاية الوحيدة لآمال النصرانى الذى كان يعد الدنيا ممرًّا للحياة السماوية ، لذلك ملكت السعادة الأبدية أفكاره .. ولكى ينال النصرانى هذه السعادة ويتجنب جهنم فقد رضى بأسوأ زهد .. رضى بالفقر والرهبانية » .

وهذا الرضا بالفقر والرهبانية هما علامتا فشل المسيحية عند التطبيق العملى ، لأنها بذلك تتطلب من البشر فوق ما يطيقون احتماله ، ولأن كبت النوازع الفطرية على هذه الصورة أمر مستحيل ، كما أن قتل الغرائز وإرهاق الجسد بالحرمان والتعذيب الدائم خلاصا من الضغوط الملحة ليس له إلا أحد أمرين أن ينقطع الإنسان مترهبناً بعيداً عن الحياة والأحياء .. وما هكذا يريد الله ولا بهذا تعمر الأرض ، أو أن يسقط الإنسان من طول المقاومة فينحرف إلى غير عودة ..

---

(٣٢) من مقدمة عشرون قرناً ، للأستاذ حبيب سعيد .

ذلك أن المسيحية فى تطبيقها العملى مخالفة لطبيعة الحياة والأحياء[٣٣] : فالجسد فى المسيحية كما فى الهندوكية محتقر مهين ، ولا ينزع لغير الشر ولا ينتج عن إطاعة شهواته إلا الشقاء الأبدى ، ومن ثم فإن طريق السعادة الأوحد وهو قهر الجسد وكبت الشهوات .. فالطريقة المثلى للتطهر من غريزة الجنس فى المسيحية هى عدم الزواج ، والانقطاع عن هذه الشهوة التى تهبط بالروح .. لذا فإن الصبى المسيحى ينشأ وفى نفسه عقد تستنكر الجنس وتستقذره . فإذا بلغ مبلغ المراهقة بدأ الصراع ثم لا يكف أبداً . حتى لو تزوج الفتى وبداخله كل هذه العقد .. وأى كارثة كانت تصيب الإنسانية لو أن كل البشر اعتزلوا الحياة وسجنوا أنفسهم خلف الصوامع والأديرة .. إذاً لانقطعت الحياة بانقطاع النسل .. كذلك فإن التعاليم المثالية تقول : « إذا ضربك أحدهم على خدك الأيمن فأدر له الأيسر » . و « إذا أعثرتك عينك فاقلعها وألقها عنك ، فإنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك من أن يلقى بدَنك كله فى جهنم » . وجميل حقًّا أن تنتشر هذه التعليمات ولكن أين هى فى الحياة .. وأين هى من سلوك البشر؟ حقًّا إنهم يستجيبون لها ولكن فى حدود الكنيسة ، حتى إذا انطلقوا للحياة انطلقوا بشراً ، لا يدير أحدهم خده الأيسر لمن لطمه على خده الأيمن ، ولا يقلع أحدهم عينه ويلقيها عنه لأنها تعثره ، ولا يرضى بأن يهلك عضو واحد من أعضائه تكفيراً عن إثم من الآثام . ومع إيماننا بالمسيحية كدين سماوى نزل على نبى من أنبياء الله هو عيسى عليه السلام ، فإننا نقول أن نسبة الروحانية الغالبة فيها إنما لأنها كانت (حقنة) مضادة للمادية اليهودية الرومانية ، علها تتعادل معها فتصلح النفوس .

---

(٣٣) الإنسان بين المادية والإسلام - محمد قطب - بتصرف .